

فاطمة عبد الله
المُلك والملكوت
قصص
كيان كورب
دار ليلى

فاطمة عبد الله

الملك والملكوت

كيان كورب للنشر والتوزيع

(دار ليلى)

الكتاب:

الملك والملكوت

المؤلف:

فاطمة عبد الله

الغلاف:

محمد محمود

التنفيذ الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

★★★

إدارة التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★



رقم الإيداع: 11226/2011

الترقيم الدولي: 978-977-6386-36-5

المهندسين-23 شارع السودان–تقاطع مصدق-الدور الرابع–مكتب 11

هاتف: (002) (012) 3885295 - (002) (02) 33370042

البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

فاطمة عبد الله

الملك والملكوت

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب)، منذ ما يزيد على أربع سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) الذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، التي أصبح البعض منها كُتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها.

ومع ازدياد كمٍّ الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة 25 يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبحت سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر عن ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة

الشرائية للقارئ المصري.. كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها -الناشر والقارئ- على حدٍ سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت -بشدة- اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو "النشر لمن يستحق".. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها -كما عهدتموها- بالشباب الموهوب.

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" لفترة محدودة هذا العام، وعلى مراحل، وبشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج، على رأسها:

- توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها، ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

- تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب؛ حيث يضمن عودة

ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة إلى الغرض الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

- تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود "دار ليلى".

- توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصرية، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى -عز وجل- أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة أن كثيرا من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح -مثل سابقيها- بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدَّة.

الناشر



إهداء..

إلى كل الشرفاء.. الذين يحاولون التغيير نحو الأفضل.. سواء أكللت محاولاتهم بالنجاح أم باءت بالفشل..



بين صبى وكبير.. غنى وفقيـر.. جـد وحفيـد.. أرامـل ويتامى.. حكايات وصبايا.. تضحيات وضحايا.. شوارع وبيوت.. كلها تسبح فى الملكوت..

مُلك كبير.. ترتيب.. تنظيم.. الكل هائم.. سارح.. لا يلقى إلا أقداره..

حكايات وشخوص.. لا يجمعها إلا المُلك والملكوت.





يحكي الجميع عن هذا القصر أو السرايا، كما يطلقون عليه، بينما أسميه أنا القلعة الحصينة.. هكذا أتذكره منذ الطفولة؛ حيث كنت ذلك الطفل الصغير الذي لا يبدو غير نملة صغيرة أمام تلك القلعة العملاقة.. كنت أراها عالية الأسوار شاهقة تبعث في نفسي الرهبة أحيانا والغموض أحيانا أخرى.. ويحكي الجميع عن أسرارها وألغازها التي لم يكتشفها أحد بعد..

أراها يوما بعد يوم منذ الصغر في طريقي إلى المدرسة.. والآن

في طريقي إلى العمل.. لم تتغير ولم يتغير شيء سوى أنني صرت أراها كما يرونها قصرًا ليس إلا.. لم تعد تلك القلعة الشاهقة مرتفعة الأسوار، لكن لا تزال تحمل معها غموضها وشموخها الباقيين بعمر وجودها في المكان، في الشارع الذي أسكن فيه.. آه لقد نسيت.. لقد تغير شيء آخر: لم أعد أرى فيها تلك الرهبة بقدر ما أتوق إلى تلك الرغبة في معرفة حقيقتها وسرها.. لم تعد تُخيفني بل تُثيرني.. لقد كبَرت وكبرت هي فبانت عليها ملامح الزمان.. تلك الخطوط والزخارف الرائعة التي كانت تزين أحجارها طمسها الزمان.. ولونها الأصفر الزاهي تحول -بعد أن اختلط بتراب الزمن- إلى لون فريد من نوعه أكسبها جمالا فوق جمالها وتميزا فاق تميزها..

أشعر به شيخًا مسنًا يبهرني هدوؤه وصمته عبر الزمان.. يطل عليَّ بسكونه المهيب..

أتذكر كيف كنت أخشاه وأهابه ويبعث في نفسي الرعب والخوف حين أعبر بجواره وأنا ذاهب لأشتري الفول أو العيش صغيرًا.

تلك القشعريرة كانت دائمًا تسري في نفسي كلما مررت به..
لا أدري ألشكله المهيب وأسواره العالية التي تضفي عليه جلالاً ومهابة، أم لما أسمعه عنه من حكايات وأسرار تملأ القلوب بالرعب أحيانا وبالفضول أحيانا أخرى ومرات بالغموض!

إلى أن كونًا شلة إعدادي فكنا نشجع بعضنا البعض ونتبارى من سيتسلق السور ومن سيعبر من البوابة.. انزاح الخوف جانبا وجرفنا فضول الشباب وجموحه.. فكم حاولنا تسلق السور.. وأتذكر جيدا محاولتي مرة تسلق السور وقفزه دون أن أفلح.. وعودتي خائبا عابس الوجه لأمي فتعرف بذكائها الأمومي الفطري وتقول لي وهي تضحك: "كده برضو حاولت تطلع تاني؟".. ولا أنسى كيف حاولت مرة تسلقه فوقعت على جدور رقبتي واتكسرت رجلي وأخبرها أهل الشارع فأتت مهرولة وهي تبكي وتصيح وتقول لي: "كده برضو.. حرام عليك توقع قلب أمك تفزعها عليك".. كنت مرعوبا من أن تضربني، لكنها احتضنتني في حب وحنان فصرت أضحك والجميع يقول: وكمان بتضحك يا واد يا شقي؟!

ذكريات جميلة ما أحلاها.. أبتسم كلما تذكرتها..

أتذكر كم مرة "اتقفشنا" في هذه المحاولات أنا وأصدقائي:

مرة من أحد جيراننا وهو عائد من العمل.. ومرة أم صديق لنا وهي ذاهبة إلى السوق.. إلا بقى أما كان يقفشنا عم مأمون -بواب العمارة اللي قدام القصر- كانت إيه.. تبقى ليلة.. أتذكر هذا كله فتزيد ابتسامتي..

آه.. الله يمسيك بالخير يا عم مأمون.. كثيرا ما حكيت لنا ألغاز وأسرار تلك القلعة.. عفوا القصر.. فمازلت أسميه القلعة كما اعتدت وأنا طفل صغير.. لقد بدا لي حينها بارتفاعه الشاهق واتساعه شامخا عاليا كقلعة ذات حصون وأسوار كقلعة صلاح الدين التي كنت حديث العهد بها في المدرسة الابتدائية وكنا ندرسها في مادة التاريخ وكنت أسميه القلعة الحصينة..

إلا أنها -أو أنه- ما زالت تحمل أسرارا وحكايات كثيرة وألغازا وأساطير لا تنتهي..

أتذكر حينما حكى لنا عم مأمون أنه كان قصرا لعظيم -

قديما- وكان يملك الكثير من الخدم والحشم والحراس وكانت عائلته -جدًا عن جد- يعملون هناك إلى أن رحل ذلك العظيم وتركها خربة من زوراه فاستمرت عائلة عم مأمون في العمل لدى سكان الشارع.

* * *

أما الحاجة نوارة -جارتنا اللي فوق- تلك السيدة المسنَّة البشوشة التي أرتاح لحديثها وجلستها فتنفي ذلك وتقسم إن جدتها الكبرى تجزم بأنهم "بين يوم وليلة صحيوا لقوا البتاع ده" ناس قالوا قصر.. ناس قالوا سور.. ناس قالوا وكالة.. إلا أنهم جمعيا يهابونه ويؤكدون أنه "مسكون".. كنت أبتسم مع انخفاض نبرتها الواضحة في كلمة "مسكون" ووشوشتها لي بها وذلك الفزع والخوف حين تقول لي: ابعد عنها يا ابني.. دي.. دي.. دي بسم الله الرحمن الرحيم.

وتؤكد أن جدتها لأمها وأمها كانتا تسمعان أصواتا تأتي من خلف هذا السور ليلا وشيئا ما يصدر عن ذلك القصر في أيام الشتاء

الباردة ولا يعرف أحد مصدره.

* * *

أما مدام لورا اليونانية -زوجة الأستاذ سامي أمين الذي يسكن الطابق الأسفل- فتقول إنها سمعت من جماعة يونان كانوا يسكنون الشارع قديما أن تلك السرايا كانت لرجل عسكري أجنبي عظيم الشأن أيام الاحتلال وعمل على صيانتها وتوضيبها وتنسيق حديقة جميلة بداخلها مليئة بالأشجار المتنوعة من صنوبر وسنديان وبتولا وكافور وأبانوس وصندل وزيتون ونخيل ونباتات نادرة وزهور الياسمين والفل وزهر السوسن والكاميليا والبنفسج وعباد الشمس وزهور التيوليب التي تحبها كثيرا وتحتفظ بها دائمًا في زُهريتها بالمنزل.. تتنهد مدام لورا وهي تحكي عن الزهور وعشقها لها.. وكثيرا ما تجلس تصنف لنا أنواعها وفصائلها المختلفة.. فهي تعشق الورود والزهور.. وتصف لنا مدام لورا تلك الفسقية الجميلة ذات الزخارف الرائعة ذات الجوانب الثمانية التي تصب الماء في ثُمانية أكبر من خلال فتحات على شكل زهريات صغيرة يخرج

منها الماء ليصب في القاعدة المثمنة الكبرى التي تتوسط الحديقة كما تتوسط الجوهرة منتصف التاج فتزيده جمالا وزينة –هكذا حكى لها أصدقاؤها اليونانيون– ثم رحل صاحبها مع من رحلوا وقتها وصارت مهملة.

* * *

جلست ذات يوم على قهوة سلامة النشرتى.. تلك القهوة على ناصية الشارع المطل على التقاطع مع شارعنا.. وسمعت صبحي اللومانجي.. وهو حرامي تائب ذاع صيته في المنطقة من أبناء الحي.. له صولات وجولات.. اشتهر بمهاراته الاحترافية على السرقة وحنكته الإجرامية الرهيبة وقدرته الخارقة على سرقة الكحل من العين.. كان يحكي أن هذه السرايا منذ أن تركها أصحابها الذين لا يعرف عنهم أحد شيئًا صارت مأوى لكل قطاع الطرق واللصوص الزملاء، حتى إنه يستاء لأنها لّمت كل من هبّ ودبّ في الكار ومحدثي الإجرام، كما سماهم.. وكان هذا مصدر إزعاجه في الحقيقة.. حكى عن أمجاده حينما كانوا يلتقون فيها ويتخذونها

مقـرا لتقـسيم الغنـائم بعـد الـسطو الـذي كـان -أحيانـا- مـسلحا بالطبنجات أو بالأسلحة البيـضاء.. وراح يحكـي لـرواد القهـوة كمـا يحكي الشاطر حسن أو علاء الدين حكاياته ومغامراته.. راح يحكـي عن تلك الكنوز التي كانوا يرونها بالداخل من مجوهرات ومشغولات وتحف وآثار نادرة وكانوا أحيانا يقتـسمونها فـيمن بيـنهم وأحيانـا يترفعون عن ذلك فيأخذ كلٌّ ما يريد.. قهقه عاليا وهو يتـذكر كيـف اختلف أحدهم مرة مع زميل وهم يقتسمون ما وجدوا؛ حيث عثـروا على صندوق كبير مليء بالمجوهرات والمشغولات باهظة الثمن غالية القيمة.. وبعد أن قامـت عَركـة كـبيرة -وعركـة أي معركـة حاميـة الوطيس- هذا مع معرفته بأحد الجالـسين بجـواري، أسـفرت هـذه العركة عن إصابات لا بأس بها "إشي في الراس وإشي في البطن وإشي في الوش.. ولا الواد حموءه خدله سكينة في كتفه".. هكذا حكـى لنـا صـبحي اللومـانجي وهـو يـضع رجـلاً فـوق الأخـرى علـى القهـوة ويستنشق دخان شيـشته برائحـة الخـوخ.. فهـو آه لومـانجي لكنـه صاحب مزاج.

لم يستطع مقاومة ذلك الضحك المفاجئ الذي هاجمه وهو يتذكر أيام الشقاوة -كما يسميها- ويقهقه ويرتفع مع قهقهته كرشه الكبير الذي ازداد ثقلا مع توبته واعتزاله؛ لأنه خلاص ما بقاش خفيف زي الأول -هكذا يقول- تركنا متشوقين لنتيجة العركة وصفق بيديه العريضتين تصفيقة قوية للواد شحتة القصير صبي القهوة ليستبدل له بحجر الشيشة آخر.

عاد يضحك حينما تذكر كيف انتهت العركة بأنهم استشاروا الريس "رئيس العصابة طبعا" المعلم عزمي كلبش، وقال لهم: اعملوا "توس".. اندهشت وأنا أرتشف كوب الشاي ولم أستطع منع نفسي من فضولي والتفتُّ إليه وظننت أنه سيغضب لأنني أتابع حديثه، إلا أنه نظر لي وابتسم مرحبا.. يبدو أنه مستمتع بهذا الجمع الذي تراص لسماع حكايات الشاطر صبحي اللومانجي وصار محور الاهتمام والكل قاعد يسمعه وقال للحاضرين -الذين لاحظ انتباههم لحديثه كانتباه الأطفال لحدوتة قبل النوم-: "أيوه توس يعني بالبلدي بتاعكم قرعة".. وقهقه مرة أخرى.. يبدو أنه يضحك

علينا وعلى سذاجتنا.. معلش بقى ما احنا لسه أطفال مش بيحكيلنا الحدوتة؟!

* * *

بعد أن انتهيت من صلاة الجمعة في زاوية في ركن شارعنا سلّمنا على الشيخ محمد الجزراوي –شيخ الزاوية– وجلسنا قليلا نتحدث عن أمور الشارع والسكان.. وعن التراحم والمودة والسؤال عن الجيران والوصاية بالجار والأحاديث النبوية التي توصي بالجار والتراحم بين الناس.. تطرق بنا الحديث عن السرايا.. ما هو طبعا أهل الشارع ليس لهم محور للحديث كلما التقوا غير السرايا وحكايات السرايا وألغاز وأسرار السرايا.. وأكد لنا الشيخ الجزراوي أن ذلك القصر كان لشيخ عظيم من مشايخ الصوفية القدامى وله من الكرامات والمشاهدات ما يعجز عن وصفه.. فهو صاحب كرامات وله مقام بالداخل وكان من أولياء الله الصالحين.. ويقول أحدهم في الجلسة إنه كان من أصحاب الكرامات ومن أصحاب الخطوة.. نظرت إليه وحملت نظرتي تساؤلي: "يعني إيه أصحاب خطوة؟".. فطن

الرجل لنظرتي وسؤالي وقال: يعني يشاهَد في أكثر من مكان في وقت واحد.. فشاهده أحدهم قديما وكان يزور القدس.. شاهده في مسجد قبة الصخرة.. بينما أكد الجميع أنه يومها كان يصلي بهم العصر جماعة في المسجد الكبير حيث يسكن.. أي والله ده قصر صاحبه له كرامات ده ولي.. ولي من أولياء الله.. هكذا أردف الرجل.

ويؤكد الشيخ الجزراوي أن جميع المشايخ يعلمون أن الشيخ الصوفي صاحب القصر تركه وقفا لله تعالى.. إلا أن الحكومة أهملته ولم تعِد صيانته وترميمه فصار خربا ملجأً للصوص والمتشردين.. وعض شفتيه في أسى على حال الدنيا.

* * *

مرضت أمي بالأمس القريب وأوصتني أن أذهب إلى السوق وأشتري ما يلزمنا بدلا منها.. وبينما أنا سائر في السوق سمعت سيرته "أيوه سيرته.. وهو في شارعنا سيرة غير سيرته؟".

سمعت أم دنيا –بائعة الجرجير– وهي تتحاور مع ست حميدة –صاحبة دكان البقالة في أطراف السوق الذي تركه لها

زوجها الراحل عم سيد وتقف فيه منذ وفاته تدير شئونه بنفسها- كانت أم دنيا تخبرها بأن أجدادها وأجداد أجدادها يؤكدون أن القصر اللي في الشارع اللي ورا -تقصد شارعنا- لم يكن إلا وكالة أو سوقا كبيرة يقف فيها العديد من التجار من مختلف الجنسيات يبيعون مختلف البضائع وكلٌ منهم له مساحة من الأرض يقف عليها.. وهناك من يبني قطعته فيجعلها دكانا أو اثنين.. وهناك من يشتري دكاكين الجميع ويمتلك الوكالة أو الربع بأكمله ويتحكم في الجميع ويقولون إن ذلك المعلم الكبير منعم الكومي الذي اشترى الجميع وتحكم في أقواتهم وأرزاقهم "يعني القوة لرأس المال على طول من زمان كده".. هكذا قلت محدثا نفسي وأنا أسمع قصة ذلك الـ"منعم الكومي".. استكملت أم دنيا: "جه يوم وجت فرة في البلد" -وفرة دي على ما أذكر مرض مميت شائع زي الكوليرا كده- المهم خلينا في كلام أم الدنيا.. كانت تقول: "جت الفرة والأحوال نامت والتجارة خسرت والناس ماتت واللي فضل بعد كده عجز عن سداد ديونه".. يعني تعثروا في سداد الديون هم كمان "قلت لنفسي هامسًا -وأنا أستمع لحكاية أم دنيا واستكملت والست حميدة تتابع في شغف وأنا أسترق السمع لهما-: ما حدش قدر يدفع ساعتها

الجباية اللي كانوا بيسلموها للمتولي أو غيره.. وقالت لها إنهم حكموا عليهم أن يتركوا الوكالة كما هي وأن تؤول لأصحاب النفوذ وقتها.. لكن أم دنيا أكدت للست حميدة أن ثلاثة أرباع التجار كانوا مخبيين فلوسهم وذهبهم وورق ملكيتهم ودافنينه في السوق وكانوا يحاولون التسلل كل مدة ليلا ليحضروا ذهبهم وفلوسهم وأوراقهم التي سبقهم إليها اللصوص وقطاع الطرق بالطبع، وأن بعضهم – ومنهم جدها الكبير– "كان واعي وناصح".. هكذا تقول أم دنيا، وخبى الفلوس والورق كويس ودفنهم وفحت لهم في السوق وبعد مدة بعت عيل من عياله بالليل يجيبهم ولقاهم فعلا زي ما هم..

قالت أم دنيا –وقد تغيرت نبرتها لفرحة التشفي–: إنما بقى منعم الكومي كبير السوق كان راخر مخبي ودافن الفلوس وكان كل ما يحاول يتسحب يجيب ورقه وفلوسه ما يعرفش ولما عرف بعدها بمدة لقى كل حاجة راحت واتسرقت.. بس الحق جدي بيحكي إن الكل والسوق كله كان فرحان فيه لأنه كان راجل جشع وظالم ومفتري وبيظلم الكل ويتحكم في قوتهم ورزقهم والكل كان شمتان فيه ساعتها.

* * *

يقول الأستاذ سيد البوهي -الموظف بمصلحة التنظيم والذي يسكن الشارع-: إن هذا القصر كان وقفا قديما من قبل جده وجد جده وإنه جاء شيخ الحارة التابع للمنطقة في إحدى السنين وسكنه بالقوة واستولى عليه وتمتع به وبكل ما فيه، مما أثار غضب أهالي المنطقة وقتها؛ لأنهم تأكدوا من مَثل "حاميها حراميها" وثاروا لذلك أشد الثورة وذهبوا له وكلموه مرارا وتكرارا، إلا أنه استخدم القوة والنفوذ وضرب بكلامهم عرض الحائط. فما كان من الأهالي إلا أنهم سكتوا وفضلوا ساكتين إلى أن اتفقوا جمعيا وتربصوا له في يوم وهو عائد من العمل وطلعوا عليه بالشوم والعصي وفين يوجعك.. هكذا يحكي لنا الأستاذ سيد البوهي ويقول عنه وهو يضحك: إنه "اتبهدل" فلم يستطع بعدها أن يرفع رأسه في الشارع.. واستيقظوا يوما وجدوه لمّ هدومه وحاجته وخد عياله ومراته ورحل من الشارع.. هكذا كان يحكي الأستاذ سيد البوهي متحمسا ويقول: "أُمال إيه؟ آدي الناس الجدعان ولا بلاش.. لما اتفقوا عليه أجبروه

يسيب الشارع وطردوه شر طردة وما صبحش عليه الصبح فيها أُمال إيه؟".

يستكمل الأستاذ البوهي: لكن إيه اللي حصل بعد كده للقصر؟ ربك والحق ما حدش عارف.

صار القصر وحكايات القصر تملأ كل مكان في الشارع كلٌّ يحكي ما يستهويه حتى إن أختي الرقيقة الحالمة كان لها نصيب في قصة تستهويها سمعتها من الست قوت القلوب التي تسكن السطح.. حكت لها أنه كانت تسكن هذا القصر أميرة رائعة الجمال.. وكان لها من الخدم والحرس ما يفوق تعداد سكان قرية بأكملها.. وكان لها كل شيء: الجمال والمال والنفوذ.. وكانت هي ووالدها آخر سلالة هذه الإمارة.. وكان يتردد على القصر شاب من العامة من سكان الشارع ليوّرد المؤن للخزائن فرأته وأحبته وأحبها حبا جما.. وكانت قصة عشقهما تملأ أركان القصر.. وطلبت من والدها أن يسمح لهما بالزواج ليتوجا قصة الحب الرائعة الطاهرة بينهما فهددها ونهرها وتوّعدها وخيرها بين إقامتها في القصر أو أن تتزوج هذا

الـشاب وتـترك كـل شـيء.. ولأن قـصتهما كانـت تفـوق الوصـف والأقاويل، فقد تركت الأميرة كل شيء مـن أجلـه ورحلـت مـع مـن تحب ولا يعرف أحد عنها أو عنه شيئًا.. إلا أن قصة حبهـا صـارت من القداسـة والتـضحية والحـب الطـاهر قـدوةً ومثـالاً عـبر الـسنين تتوارثها وتتحاكاها الأجيال جيلا بعد جيل ويظل القصر شاهدا على قصة حبهما العظيمة.

كلما مررت بالقصر يذكرني بذلك السر العظيم كيف يحـاول كلٌ منا أن يتوغل في أغوارها أو يقفز أسوارها.. إلا أنه يعود أدراجـه خائبا ويعود ليطرق الأبواب من جديد.. كلما حاولت أن تتسلل إليها أو تدخل في غفلة منها لا تفلح.. تحاول أن تعرف أسرارها وتكتشف ألغازها الكثيرة فلا تـنجح.. تلـك الـنفس البـشرية.. تلـك الأسـوار العالية.. ألغاز وأسرار كثيرة لم يستطع أحد اكتشافها أو الاهتداء إلى حلها على مـر الزمـان.. ولم يـنجح أحـد –ولـن يـنجح– في اخـتراق القلاع والحصون والأسوار..

صرت كلما أعبر الـشارع أسمـع قـصةً جديـدة عـن القـصر أو

السرايا -كما يفضل أن يطلق عليها أهل الشارع أو أيا ما كان اسمها أو اسمه- من كل من أعرف ولا أعرف. كلٌّ يتوق لمعرفة سره الأبدي ويتملكه الفضول لاكتشاف لغزه الأسطوري الصامد، الصامت الباقي.. والذي يضفي عليه بهاءً ووقارًا.. بينما لا يأبه هو لكل تلك الحكايات والحواديت التي لم ولن تنتهي يومًا..

حتى وأنا أمر الآن بجانبه مسرعا في طريقي إلى العمل -وقد استيقظت متأخرا- أبتسم وأفكر: أكان يوما لمدير طرد موظفيه لأنهم تأخروا يوما عن العمل؟



يحكى أنه في مملكة قديمة كان يحيا سـكانها في أمـن وأمـان

وفي سلم وسلام.. يتحابون فيمن بينهم ويحيون في رغد ووئام..

ليس لديهم من دنياهم إلا حب ومودة وكل محبة..

ليس بينهم حاقد أو حاسد.. ولا منهم مجرم أو قاتل..

كلامهم معسول وفهمهم مقبول ولا ينطق فـوهم (فَمهـم) إلا

بحلو البيان.. ليس لهم إلا صنعتهم وحِرفتهم..

كانوا يمتهنون في الصباح المهن وفي المساء حرفتهم الكلام..

نعم.. كان السكان كلهم صنعتهم وحِرفتهم الحديث.. حلو الكلام ومعسوله، وسحر البيان وتكوينه.. عاشوا ووُلدوا لا يعرفون عن الحَرف إلا أنه لحسن الحديث وجميل الصنيع.. لا يعرفون إلا أن للحَرف وظائف كثيرة.. كلها في مدح الذمم ووصف المعاني لأغراض نبيلة.. وأن للحَرف هيبةً كبيرة..

كانوا جميعا يمتلكون زمام الحَرفِ وناصيتَه.. قلب الكَلِم وظاهره.. مهر الكلمةِ وصِمامِها.. حُلو المَعنى وباطنه..

كانوا يتسابقون ويتنافسون في وصف المعاني وسحر البيان.. يملكون أجزل وأروع الكلام..

وفي يوم من الأيام.. والكل نائم بسلام.. هاجمهم شرذمة من الأعداء.. راحوا يهرعون.. يهرولون يبحثون عن أي شيء للدفاع..

اكتشفوا فجأة أنهم لا يمتلكون في حياتهم إلا الحُروف والكلمات.. قوة المعاني وجزيل الألفاظ!

الأعداء تُغير..

وهم في عزلة بلا تدبير! قرر أحدهم استخدام الأداة والمهارة الوحيدة التي يملك (الحَرف)..

فـراح يقـذف كلِماتِـه في وجـه أعدائـه، وتعجـب! وجـد أن الكلمة تهوي فتُصيب وتُرشق فتنفذ.. تُوجه فتخترق..

قذف الأخرى وجدها تُدمي..

صاح بقوة.. صيحة نصر..

صيحة منتصر مغوار وفارس مقدام..

يا أهل المدينـة.. إنكـم تـستطيعون المقاومـة.. إنكـم مؤهلـون للـدفاع.. إنكـم تملكـون الـسلاح.. لقـد كـان خفيـا عنـا وعـنكم: (الكلمات)..

فهلموااااااااااااااااا..

وبدأ أهل المدينة كلهم في التراشق بالكلمات مع الأعداء.. بدأ سيل الكلمات يتهاوى.. وتُقذف الكلمـات فيـسقط الـضحايا.. يـسقط قتلى.. صرعى.. يسقط شهداء..

بدأ الجميـع في التراشـق والقـذف.. فوجـدوا أن للكلمـة قـوة

تقتحم الميدان.. تنفذ.. تُدمي.. تُرهب.. تَكسر كل حواجز الصمت وتعبر حدود الشطآن..

تجتاح النفس.. تخترق القلب وتقطع شرايين الأوصال.. تزحف في الاتجاهات كلها.. بدأ الزحف.. زحف الأحرف.. والكلمات.. بدأت تجتاح..

فجأة اكتشفوا أن للحَرف استخداما.. هناك استخدامٌ آخر غير الغَزَلِ ومَعسول الكلمات.. اكتشفوا أن الحَرف ينتزع الأنات.. وأن الكلمة سيف وسهام.. وأن للبَيان نبالا.. تفجر سيل الكلمات.. ينادي ويخسف ويزلزل الثابت مِن تحت الأعداء..

عرف الكل أن الكلمة سلاح فتاك.. يسيل الدم ويحمي العرض ويدفع كيد الأعداء..

الأحرف أسهم.. والكلمات سلاح.. الكلمة نار..

هرب الأعداء.. فر الأعداء.. لم يحتملوا.. لم يقووا على رشق الكلمات..

لم يعد منهم أحد للآن..

في المساء.. صَخب.. هَرج.. مرج.. احتفال..

احتفل أهل المملكة والمدينة في كل مكان.. حفل للنصر.. للفرح.. للإلهام..

كشفٌ مذهل.. كشف غِطَاءْ.. اكتشاف..

أن الكلمة ليست فقط لمعسول الكلام.. هي سهم.. هي حبل.. هي مدفع.. هي دانة.. هي طلق.. هي درع.. هي نار..

وُلدوا وعاشوا.. ربوا وعرفوا وحفظوا أن قوة المعنى في الإنسان..

كان شعارا.. كان لزاما: إن من البيان لسحرا..

اليوم عرفوا أيضا ولأول مرة: أن الحَرف.. سهم..

عاشوا حياة هادئة.. خالية البال..

وفي يوم سجله التآريخ بحروف من دمع ولهيب..

اصطدم طفل مارٌ بكبير.. وبدلا من أن يبتسم في وجهه ويستأنف لحاله المسير..

ماذا حدث وربي في تلك الليلة التي سُطِرت في عمر الدنيا؟

لقد وقف الرجل –من بعد أن عرف ما يملكه من سطوة–

وقف يتراشق بالحروف وبالكلمات.. يا الله.. ولأول مرة يتراشق أهل الدنيا فيمن بينهم بالحَرف.. بالقذف والتشهير..

رُحماك يا الله..

أخذ الرجل يتراشق بالكلمة والمعنى.. ويقذف هذا اللفظ ويهوي بذاك فيصيب.. ويقذف تلك الكلمة فيدمي ويؤلم.. ولأن الطفل صغير ولأن ما فعل الرجل دون تفكير.. ولأن كل أهالي البلدة لم يعهدوا يوما التغيير.. لم يألفوا ذاك المشهد بالتأكيد.. بُهتوا.. صُرعوا.. ذُهلوا.. لم يتحرك منهم ساكن أو يتدخل في الحدث ولو بقليل..

لم يتحمل ذاك الطفل الألم.. الوجع.. وما خلفه قذف الحرف من جُرح بالغ وخطير..

سقط قتيل..

سقط صريع..

آهٍ سجل يا تاريخ.. أول مقتول في هذي الدنيا بسلاح "الكلمات"..

لم يستوعب أهل الحكمة ما حدث في مدينتهم الرغداء.. لم

يستوعب أهل الخبرة وأهل الحِنكة ما ألمَّ بالسكان..

فجأة.. حزنا.. كمدا.. اجتاح أهالي الأطفال بيت الرجل وتراشقوا بكل الكلمات.. تناطحوا وتطاحنوا بكل ما يملكون من أحرف ونبال وسهام وكل ما يعرفون ويجيدون من نَظم وحديث وبيان..

قذفوا الرجل بكل الأدوات.. بكل الأسلحة والذخائر والإمداد.. بكل حرفٍ أو معنى أو لفظٍ أو كلمة..

سقط الرجلُ.. وهدأ الروع..

سكنَ الإخوة.. عفوا.. من كانوا إخوة..

من يومها عرف السكان أنهم يمتلكون سحر البيان.. سلاحًا حادًا فتاكًا.. سلاح المعنى والكلمات.. فصاروا يستخدمون كل الأدوات.. في كل الأوقات..

قَذفٌ.. إصابةُ أهداف.. يتراشقون بكل ثبات في أي أمر أو حدث ماضٍ أو آت..

من يومها بدأت تُفهم كَلمة "حرب".. تُسمع لأول مرة في

القاموس.. كلمة جديدة تخترق الناموس "شهداء الحروف"..

قتيل الكلمة والحرفِ وشَهيدُه..

من ذاك اليوم المشئوم عرف الإنسان أن للحرف مَهامِ..

مهام أخرى غير الإحسان..

أن للكلمة طريقا غير الإلهام..

أن للمعنى قوة غير الإحياء..

أن كما تبني الكلمة تَهدم.. وأن الكلمة تُقذف.. فتُصيب.. فتَقتل وتُميت..

من يومها عرف البشر والبشرية.. ولأول مرة.. حروبًا لم تتوقف حتى الآن.. حربًا ليست كباقي الحروب التي عرفتها الدنيا من قبل.. إنها حروب الحروف.



دقات الساعة الثامنة مساءً تعلو في أحد أحياء القاهرة القديمة ذات البيوت العتيقة، والسكان البسطاء، الفقراء.. خطوات حائرة وعيون زائغة.. تبحث هنا وهناك.. إنها خطوات الست مديحة التي تسكن الطابق الأرضي، تبحث عن أي شيء تطهوه. لم تجد. صرخات الأطفال الجوعى تعلو.. تتعاقب.. لم يأكلوا شيئًا منذ الصباح.

ظنت في البداية أنهم سينسون ويخلدون للنوم.. لكنهم لم يفعلوا.. صرخاتهم تتعالى وبكاؤهم يشتد.. قلبها يعتصر.. يتقطع..

لا شيء بيدها.. بل لا شيء معها.. لا طعام لا مال.. ماذا تفعل؟ ستجنٌ.. الأطفال يصرخون.. صرخاتهم تعلو.. قلبها يكاد يتوقف من الألم والحسرة.. بحثت.. بحثت.. لم تجد شيئا.. نظراتها زائغة هنا وهناك.. الأطفال جائعون والبرد قارس.. والليل والشتاء قد تآمرا عليها في هذا اليوم شديد البرودة.

نظرت للأطفال.. هم الآن صامتون.. قابعون في أحد الأركان.. وجوههم صفراء.. شفاههم بيضاء.. عيونهم حمراء.. شاحبو اللون..

صرخت: لا.. لا.. لا..

انطلقت كالمجنونة.. كقطة تحمل أولادها تحت مطر الشتاء تبحث عن مكان تعصمهم من البرد.. انطلقت هي الأخرى تبحث عن طعام.. عن مال.. عن أي شيء، فجأة انتبهت للمعطف الثمين الذي ترتديه ليقيها من برد الشتاء.. الذي جلبه لها أخوها من البلد العربي عندما كان يعمل هناك قبل أن يموت منذ عدة سنوات تاركا إياها للزمن، للمصير.. فالأب رحل تاركا الجمل بما حمل منذ سنين.. انتبهت لغلو ثمنه.. جرت.. بحثت بعصبية عن معطف

آخر.. لم تجد إلا معطفا بصمت عليه ملامح الزمان متمثلة في بعض ثقوب تخترق مجرى النسيج المتهالك.. ارتدته. لم تتردد لحظة.. انطلقت.. هرعت نحو الباب لتتجه إلى سوق الكانتو لتبيعه.. علـه يباع بثمن مجزٍ يكفي لسد الجوع وبلَّ الريق.. انطلقت مسرعة فالساعة تقترب من التاسعة والسوق تكاد تغلق أبوابها.. خطواتها تضرب على الأرض بشدة.. أسرعت وكأنما تسابق عجلات قطار يجري من خلفها.. سيسحقها ويدمرها.. أسرعت تسابق قلة الحيلة والفقر والجوع.. أسرعت تسابق رحلة العناء والمعاناة والشقاء.. أنفاسها ترتعد.. نبضات قلبها تعلو.. تتصارع.. أسرعت.. نهجان صدرها يتصاعد.. أسرعت أكثر وأكثر.. الليل حالك والشتاء قارس ولسعة البرد في الأوصال تتخلل.. لا تشعر بها.. لا تأبه لها.. تشعر فقط بآلام وحرقة قلبها ولوعته.. تشعر بقلة حيلتها ووحدتها.. البرق يشق ظلام الليل وأرض السماء.. لا تراه.. لا ترى إلا أولادها الجائعين في انتظارها.. الرعد يغزو هدوء الليل ويكسر صمت الشتاء.. يهز القلوب.. يرج الآذان.. لا تسمعه.. لا تسمع إلا صراخ اليتامى أولادها.. نعم.. فهم يتامى.. بكاؤهم يتعالى.. يتعالى في

آذانها.. تسرع أكثر.. أكثر.

وصلت.. تنهج.. أنفاسها تتعاقب.. دخلت دكان أحد الجيران ظنا منها أنه قد يكرمها ويزيدها في الثمن.. عرضت عليه المعطف الذي تعلم جيدا أنه يساوي الكثير.. قلّبه في غير اهتمام ودونما اكتراث.. تفحصه كأسد يختار فريسته بعناية.. قلّبه كذئب وحيد في حظيرة دجاج ينتقي منها ما يشاء.. مبديا عدم الاهتمام.. ثم قال: ثلاثة جنيهات. شهقت.. ها؟ ماذا؟؟ إنه يساوي خمسمائة جنيه.. هكذا قالت. قهقه قائلا: حتى لو كان.. استطرد: أنت في سوق البالة.. الكانتو.. نشتري الملابس المستعملة.. نصلحها.. نجملها.. نكويها ونبيعها ونكسب فيها.. ذلك كله بأرخص الأثمان.. فبكم نشتري بالله عليك؟ ماذا تتوقعين؟

وبعد عدة مهاترات لا جدوى منها لرفع المبلغ وزيادته ومناقشات عقيمة بين الطرفين: "والنبي يا معلم".."مفيش أكتر من كده يا ستي".."ربنا يكرمك يا ريس".."ويكرمك في غيرها يا ستي".. اقتنع المعلم بزيادة المبلغ إلى خمسة جنيهات.. مقنعا إياها

أنه قد أكرمها في بضعة جنيهات وأن أحسن تاجر في السوق لن يشتريه بمثل هذا الثمن. فتحت فمها لتطلب زيادة أخرى. رفع يديه في حدة بعلامة الحسم.. ثم وضع يديه في جيبه وأخرج الجنيهات الخمسة قائلا: "الخمسة جنيه أهيه".. معلنا بذلك أن النقاش قد انتهى.

تسمَّرت.. نظرت للجنيهات الخمسة في صمت. تعاقبت أمام عينيها الصور.. قفزت إلى ذهنها الصور متتابعة.. المعطف الثمين.. المعطف المتهالك.. الصغار الجوعى.. تتابعت.. تلاحمت في رأسها الأسئلة.. خمسة جنيهات؟! خمسة جنيهات؟! أتساوي السنين؟ أتساوي العناء؟ أتساوي الشقاء؟ أتساوي صراخ الأطفال الجوعى؟ أتساوي قلة الحيلة وقصر ذات اليد وضعف الحال؟ أتساوي البرد الذي تسلل كثعبان خبيث من بين شقوق المعطف المتهالك إلى لحمها؟

ارتعشت.. انتفضت..

في أسى رفعت يدها متثاقلة لتأخذ الجنيهات الخمسة كأنما تحمل ثقلا وزنه عدة أطنان.. عدة أطنان من العذاب.. من الصبر.. من

الضعف.. من الحيرة.. عدة أطنان بثقل السنين التي ضاعت من عمرها وانفرطت في غفلة منها كحبات عقد تحت عجلات قطار وتبعثرت في فراغ الفضاء السحيق.. مدت يدها.. أخذت الجنيهات الخمسة.. مضت.

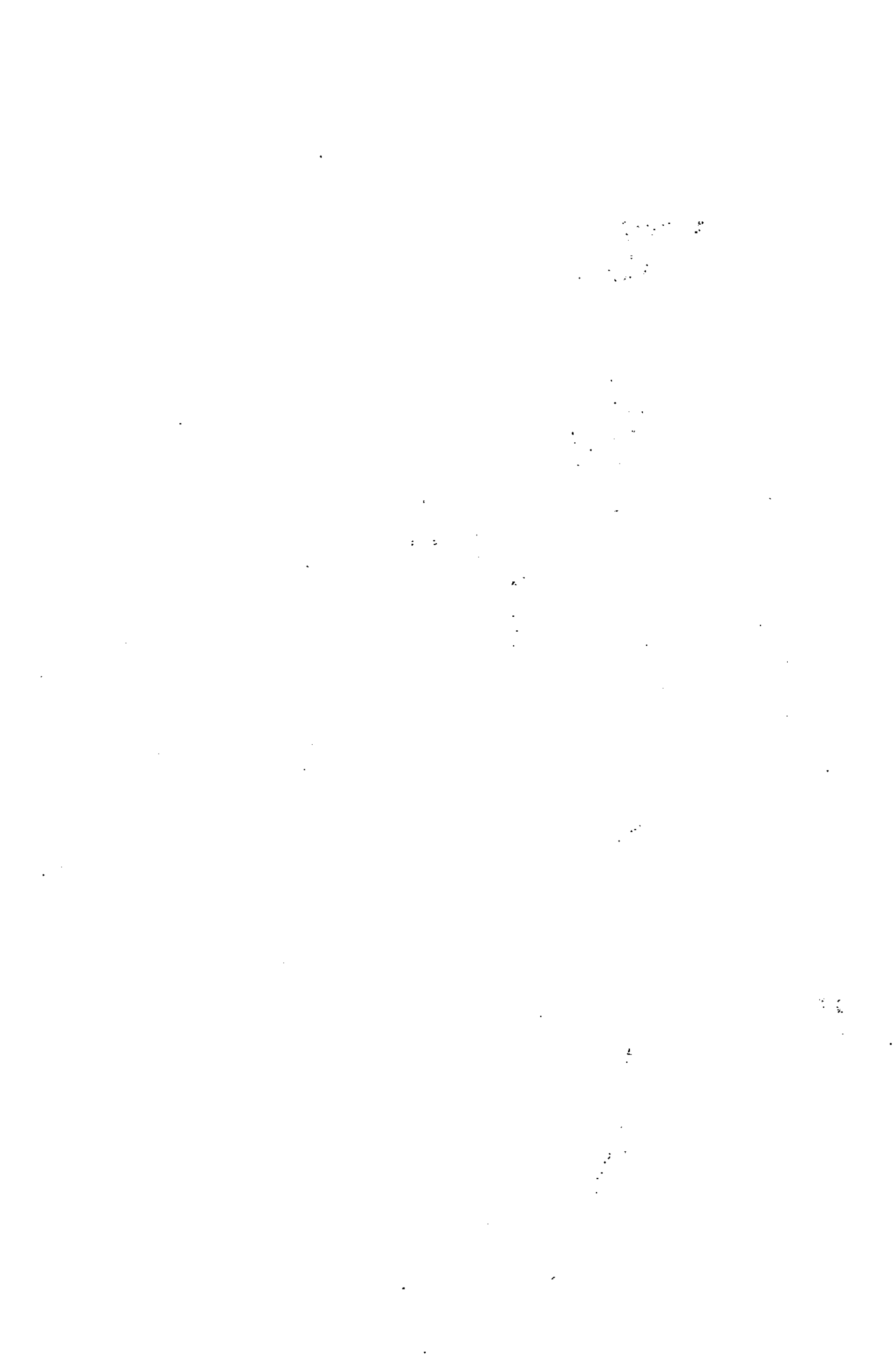
قدماها لا تحملانها.. الحسرة تعتصر قلبها.. خطواتها ثقيلة.. بطيئة.. بطيئة.. الأرض تميد من تحتها كأمواج بحر الإسكندرية في نوات الشتاء.. ما هذا؟! السماء الزرقاء صارت سوداء.. سوادها حالك.. ووجوه الناس أصبحت حمراء.. حمراء بلون الدم.. نظرات نارية.. سهام تبحث عن ظبي تتراشق فيه.

انتبهت أنها أمام محل بقالة.. انتبهت أنه لا وقت للحزن.. لا وقت للدموع.. الصغار جائعون.. والساعة تقترب من العاشرة.. أعدمت كل أحلامها في تدبير شيء من السوق لإعداده وطهوه وتوفير شيء من الجنيهات الخمسة.. انتهت الآمال فلا سوق ولا أفران.. فلقد انفضت السوق منذ زمن كما انفضت حياتها وضاعت في هذا الزمان.. ضاعت فرصة الشراء والتوفير وستضطر للشراء الغالي ولا

وقت للتفكير.. دخلت.. وقفت.. النظرات الزائغة ذاتها تملأ عينيها.. تنظر للأرفف.. تتلفت تبحث عن شيء رخيص فالجنيهات الخمسة لا تجدي نفعا في هذا الزمن الرديء.. عيناها تصارعان المكان.. لافتات الأسعار.. تصارع بكل ما أوتيت من قوة خشية أن تغرق في بحر غلاء الأسعار.. طلبت جبنا.. بيضا وخبزا.. أعطاها البائع الطلب والباقي.. نظرت للباقي.. سرحت.. ضحكت.. دمعت.. ابتسمت..

نظرت للباقي في يدها.. تأملته.. تحسرت.. مضت..

فلم يكن إلا ثلاثين قرشا..





تراصت الأحلام حلمًا خلف الآخر.. ما أكثر الأحلام والآمال.. ما أرحبها وما أوسعها..

تلك الأرواح والعقول يجمعها في تلك اللحظة حلم واحد وأمل واحد "تحقيق الحلم".. كلٌّ يبغي تحقيق حلمه وأمله.. يسعى إليهما ويبحث عنهما.. يقف في ذلك الطابور.. يأخذ دوره في سلسلة الأحلام الكثيرة التي تبحث عن تحقيقها.

الحلم واحد والهدف واحد.. الأفكار تتطاير نحو هذا الحلم

المرجو..

همستْ له في أذنه بأنها غير قادرة على تحمل هذا الانتظار في هذا الطابور المتراص من الأحلام.. ستتركه بعض الوقت وتحلّق عاليا ترى وتسمع بحرية وتهيم في ذلك الفضاء السحيق تتلمس الفكرة.. الحرية.. تتلمس الكون وأشعة الشمس الدافئة والمساحات الشاسعة والحرية الفسيحة..

أذِن لها..

انطلقت هي في ذلك الفضاء.. هامت على جناحيها..

أما هو فشرد محملقا في ذلك الطابور الطويل الذي لا ينتهي ولن ينتهي.. طارت هي.. حلقت عاليا بعيدا.. نظرت من أعلى نحوهم.. نحو ذلك الطابور الممتد الشاسع.. الأفكار والأحلام المختنقة بداخله وداخلهم..

ذلك الواقف في الطابور.. ذلك "الحلم" تعددت وجوهه وزواياه.. لكنه الحلم..

أحلام.. أحلام متراصة خلف بعضها البعض على عددها

واتساعها.. أحلام بعدد نجوم السماء وقطرات البحار.. بعدد آهات الحيارى والمعذبين ونبضات القلوب..

بعدد رمال جبال القهر وذرات التخبط والانكسار..

بعدد الابتسامات الحزينة التي تداري الإحباطات..

الطابور لا ينتهي.. ولن ينتهي..

الطابور مختنق مكتظ ممتد.. نظرت له من عاليها.. كرهته.. كرهت سكونه واستكانته.. خضوعه ومهانته.. قررت ألا تعود إليه وأن تحلق عاليا هائمة في سماء الحرية..

أفضل من ذلك الانتظار المميت..

أما هذا الشارد المحملق في الطابور فقد قرر هو الآخر أن يهرب من ذلك الطابور..

أن ينسلخ من عقد الخرز المتدلي المتشابكة حلقاته.. قرر أن يخرج.. ألا يكون منهم.. ألا يكون إلا نفسه.. أن يكون هو..

قرر ألا يكون مثل ملايين البشر..

خرج للبحث عن رُوحه التي استأذنته قبل قليل.. خرج

وراءها باحثا عنها بكل ما أُوتي من قوة جرى خلفهـا.. خلـف ذلـك الطائر الحر الطليق "الحلم".. "الروح".. "الفكرة".. "الحرية"..

هرع وراءها يبحـث عنهـا وعـن مـستقرها.. قـرر أن يلحـق بها.. جرى خلفها.. تلك الروح الهائمة..



كلما زارتنا جدتي تطلبني وبهيرة وفُتنة لتسلم علينا.. وما إن تأخذ أختي الكبرى بهيرة في أحضانها حتى تبتسم وتقول: "والله كبرتي يا بهيرة وبقيتي عروسة وخرطك خراط البنات!!"..

"أحشر" نفسي في الحديث كعادتي وأقفز "في حِجر" جدتي قائلة: "تيقه.. تيته.. يعني إيه خراط البنات؟ بيعمل إيه ده؟"..

تضحك جدتي بصوت عالٍ وتنظر إلى أمي وهي تبتسم وتقول لي: "آه منك يا مفعوصة انتي"..

تربت على كتفي قائلة في حنان: "بكرة يجيلك يا حبيبتي وتعرفي"..

ترسل الاثنتان، جدتي وأمي، نظرات ذات معنى وتبتسمان، بينما أغرق أنا في حيرتي..

بجوار خديجة صديقتي دائمًا ما كنت أجلس في الفصل. انتهزت خديجة ذات مرة فرصة "الحصة الفاضية" و"هاتك يا رغي".. حكت لي خديجة عن زيارتهم أمس للملاهي وركوبها الألعاب الطائرة والقطارات السريعة..

- "آه يا بختك يا خديجة.. نفسي أروح أنا كمان" أهمس لنفسي..

تتوقف خديجة فجأة عن سرد حكايات الملاهي وتتذكر: "اسكتي.. مش خراط البنات زارنا امبارح؟"..

أنظر لها في اندهاش وقد فغر فمي: "زاركم امبارح؟ وعرفتي منين"؟؟

- أقولك: "أصل امبارح اتقدم لأختي عريس.. ماما بصتلها

والدموع في عينيها وكانت فرحانة وقالت لها: والله كبرتـي وبقـيتي عروسة وخرطك خراط البنات خلاص"..

هكذا أخبرتني خديجة..

نظرت لها في دهشة: "وانتي شفتيه يا خديجة؟"..

- قالت لي: "طبعا لأ.. وهو في حد بيشوفه؟!"..

- "أمال بييجي ازاي وإمتى؟ أصل احنا كمان جالنا من فترة وجدتي عرفت.. تفتكري بيعرفوا ازاي؟!"..

هكذا أجبت خديجة..

تنظر لي خديجة في حيرة: "مش عارفة"..

- أكيد أكيد بييجي بالليل وإحنا نايمين وعـشان كـده مـش بنشوفه.. تفتكري شكله ازاي يا خديجة؟؟

- آه صحيح شكله إيه؟ هكذا تجيبني خديجة مندهشة..

ألتفت لها: أكيد كبير وطويل وعينيه واسعة وحمرا.. تنظـر لي خديجة في خوف..

أكمل: "وبييجي بالليل ومعاه المنشار والشاكوش"..

- تهمس خديجة في ذعر: "منشار وشاكوش؟؟"..

- أمال هيخرط البنت ازاي يا عبيطة؟ هكذا أخبرت خديجة..

أكيد بيتسحب بالليل ويدخل أوضة البنت وهي نايمة ويخرطها وبعدين يمشي من غير ما حد يحس بيه وبعدين تصحى البنت تلاقي نفسها اتخرطت..

تنظر لي خديجة في ذعر وتتأبط ذراعي وتقترب مني في جذع.. أقترب منها أنا الأخرى وننكمش بجوار بعضنا على الدكة وننظر لبعض في فزع "ونتمتم": "شاكوش.. منشار.. عينه حمرا؟"..

نصرخ معا في صوت واحد: "يا مااااماااااااااا"..

أبتسم وأنا أتذكر أيام البراءة والشقاوة مع خديجة..

أنتبه لكف أمي وهي تربت على كتفي في حنو وقد اغرورقت عيناها بالدموع: "سرحانة في إيه؟ مش تروحي تتصوري مع أختك في الكوشة؟"..

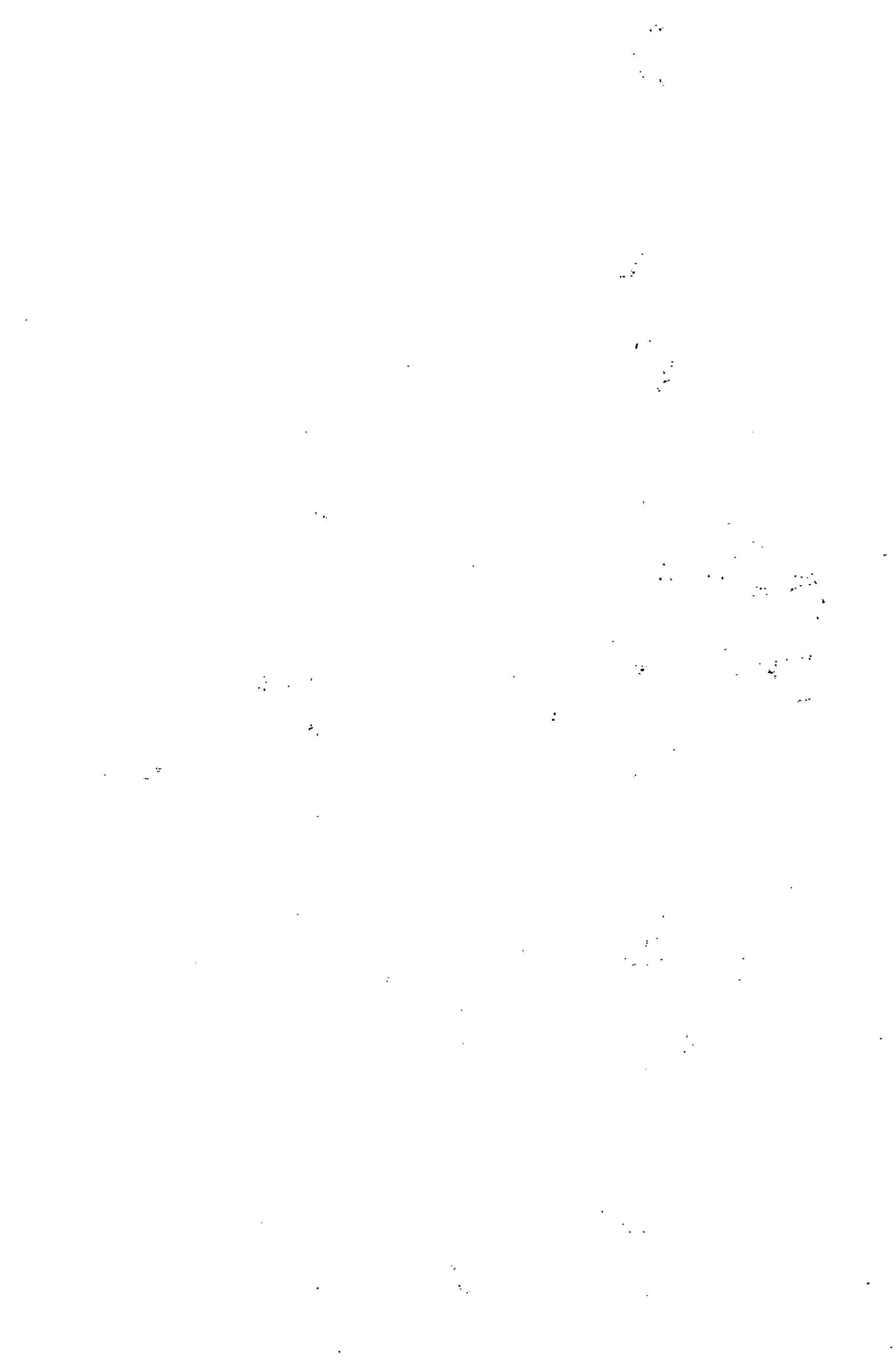
- هاروح.. انتي بقى يا ست الكل بتبكي ليه؟؟

أبـدا يـا حبيـبتي.. دي دمـوع الفـرح.. "الحمـد لله جـوزت اخواتك البنات كلهم ما فاضلش إلا انتي يا شقية"..

الحمـد لله ربنـا مـد في عمـري وشـفت أختـك فُتنـة عروسـة بفستان الفرح وشفتك وانتي عروسة حلوة وخرطك خراط البنات..

تزداد ابتسامتي وأنـا أحتـضن أمـي: "ربنـا يخليـك لينـا"..

أتمتم في سرى: خراط البنات تاني؟!





قفزات ملائكية خفيفة كريشة تتقافز مع الريـاح تخـشى أن تلمس الأرض تصاحبها ضحكات ملائكية بريئـة تجـول في المكـان.. تلك هي قفزات "عمر"..

تسرع والدته خلفه الخطى خوفا عليه من التصادم بأحدهم أو الانكفاء على أرض المول الكبير الـذي يجوبانـه.. فقـد وعـدت عمـر "بفسحة في المول" حسبما طلب منها حينما سألته صباحا: "عايز إيه يا عمر النهارده؟ نفسك في إيـه؟" فأجـاب إجابـة سـريعة حاسمـة: "عايز أروح المول يا ماما وأجيب لعب كتير"..

ولأنه حبيب ماما.. حلم العمر.. ولـذلك سمّتـه عمـر.. فقـد جاء بعد "شوقة" -كما يقولون- بعد أن أخبرها الأطبـاء أنـه لا أمـل في الإنجـاب.. لكنهـا كلمـة الله.. فـلا إرادة تعلـو علـى إرادتـه عـز وجل..

ظلت وزوجها سنوات طويلـة عـاكفين علـى متابعـة الأطبـاء وكل جديد في الطب والانتظام في تناول الأدويـة بدقـة.. وفي النهايـة تسرب إليهما الملل والتعب.. فقررا التوقف عن هذا كله والاستـسلام الراضي لأمر الله بقلبين مطمئـنين راضـيين بقـضاء الله وقـدره ورفعـا شعار "خليها على الله.. نـسيبها ع الله" وتقـبلا حياتهمـا هكـذا دون ملل أو شكوى إلى أن أذن لهما الرحمن واستجاب لدعائها المـستمر في الخفاء كل ليلة أن يرزقها الولد وكلل صبرها المـؤمن الراضـي بثمـرة إيمانـهما الصادق بقضاء الله والصبر عليه..

فكان "عمـر" هـو ذاك الطفـل "الـشقي العفريـت" ذا الأعـوام الخمسة ذا الابتسامة الـساحرة الـتي مـا إن تـشاهدها تعلـو وجهـه البشوش النضر المليء بالحيـاة فـلا تـستطيع أن تتمالـك نفسك مـن

الابتسام والبشاشة وتستكين ملامحك وتستريح حتى إن كنت في أغضب حالاتك.. ضحكته وتقافزه في المكان يملآن الكون كله بهجة وحيوية وحياة..

هذا هو عمر حبيب قلب العائلة كلها..

تخشى عليه أمه من "الهوا الطاير".. تحاول أن توفر له كل شيء.. تشتري له كل ما يريد وتهتم بغذائه ومشربه وتعليمه.. ولا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وتعمل لها ألف حساب حفاظا عليه وعلى سلامته الغالية..

يراها رواد المول من بعيد مبتسمين وهي تجري خلف "عمر".. تحاول اللحاق به وهو يقفز كالفراشة الساحرة من محل إلى محل ومن فاترينة لأخرى.. مرددا كلمته الشهيرة: "أنا عايز من ده يا ماما".. "هاتيلي ده يا ماما"..

تبتسم والدته بعد أن نجحت أخيرا في الإمساك به: "قفشتك".. هكذا قالتها مع ابتسامة حانية حينما طوقت يديه الصغيرتين وأردفت قائلة: حاضر يا حبيبي هاجيبلك كل اللي انت

عايزه..

يتجولان معا في المول ذي الأرضيات الرخامية والسيراميك.. تخشى عليه أن ينزلق من يدها على الأرضية فيجرح أو يتألم.. تمسك به جيدا كعسكري مكلف بحراسة خزانة مليئة بالجواهر واللآلئ..

يقفز أمام إحدى الفاترينات مرددا بصوته الرقيق الملائكي: "أنا عايز الدبدوب ده يا ماما"..

تبتسم أمه في حنان: حاضر يا حبيبي هنجيبه.. وتسحبه ليكملا الطريق.. لكنه يصر إصرارا فظيعا ويستخدم كل أسلحته في ذلك –وأسلحة جيل الحضانة أجمع– من بكاء وصراخ وزنٍ متواصل لا ينقطع.

فتبتسم الأم في سعة صدر وهدوء: "حاضر تعالى ندخل نشوف بكام"..

تدلف داخل المحل تحيي البائع وتسأله: "بكام الدبدوب الكبير البني اللي بره لو سمحت؟"..

يقلب البائع في "التيكت" الملصق عليه ويخبرها: بـ300 جنيه!!

تتسمر والدة عمر في مكانها مرددة وراءه في صوت خافت: 300 جنيه؟؟ تتمتم في سرها: "300 جنيه في دبدوب؟! ياااااه المول ده غالي قوي"..

تتمنى في داخلها لو تستطيع أن تشتريه لفلذة كبدها وحبيب عمرها "عمر".. لكنه ضيق ذات اليد.. فما باليد حيلة!!

تحاول سحب "عمر" وتجره جرًا وهو يتشبث بالأرض رافضًا الخروج معها ملتصقًا بالأرضية كمن يساق نحو مشنقة الإعدام.. تحاول سحبه وجره واعدةً إياه أنها ستذهب لتحضر المبلغ ثم تشتريه له غدا على الأكثر "تتمنى من قلبها لو تصدق في وعدها.. لكنها تعلم أنها لن تستطيع الوفاء به".

تسحبه على الأرضية وسط صرخات طفولية -تسببت في التفات كل رواد المول عن آخرهم- بعد أن أقنعته ووعدته أنها ستحضره له في الغد بمشيئة الله.

في طريق العودة.. ولأنها لا تقوى على رؤية دمعة واحدة لصغيرها "عمر" تعتصر مخها في التفكير.. إلى أن هداها تفكيرها للنزول لإحدى الأسواق الشعبية.. فهناك المنتجات جمعيها تغرق الأسواق وهي تشبه كل المنتجات الأصلية تماما "وكله معروض وعلى عينك يا تاجر"..

البركة في الصين ومصانع بئر السلم..

فتجد هناك كل ما تشتهيه الأنفس وتغترف من خيرات الله: ملابس.. ألعاب.. أجهزة.. كل شيء من الإبرة للصاروخ.. صحيح كله خامات أردأ ومواد أقل أمنا وجودة لكن "معلش أهي تفي بالغرض".. هكذا تمني نفسها محاولة صرف نظرها عن رداءة المعروضات وسوء المواد الخام..

كل شيء صيني أو بضاعة "كُليشين كان" من مصانع تحت السلم..

"اشتري يا أبو العيال.. متع نفسك والعيال وأم العيال: شنط.. لبس..هدوم.. أجهزة عدد وآلات تعالى وبص.. كله بنص..

قلّبي يا مدام.. اشتري يا مدام.. مين قال هات.. طلع وهات للبنات.. نقّي يا أم حمادة.. افرح يا حمادة.. ادفع يا أبو حمادة.. "هكذا ينادي الباعة بجانبيها على طول طريقها في السوق"..

تتمتم: الله يباركلهم بتوع الصين دول..

هكذا رددت بمجرد أن نزلت إلى السوق ووجدت كل ما تريد.. هناك وجدت غايتها ومرادها.. فهذا محل كبير لبيع الألعاب والدمى..

بمجرد أن رأى "عمر" الدمية الكبيرة البنية على هيئة الدبدوب الذي يريد.. صاح مهللا مشيرا إليه في فرح ومرح: "الدبدوب أهو يا ماما.. أهو أهو"..

"مش هتجيبيهولي يا ماما"؟

أجابته في سعادة: "حاضر يا حبيبي".

توجهت للبائع وسألته عن ثمنه فأجابها: "بـ40 جنيه"..

تهللت أساريرها وتمتمت: "الحمد لله.. فرق المبلغ جامد.. فعلا أهو ده أقدر أشتريه"..

أخرجـت مـن حقيبتهـا المبلـغ.. أعطـى البـائع الدبـدوب لـ"عمر" الذي خرج يتراقـص فرحـا وهـو يـصيح: "مامـا أنـا بحـب (بولو) قوي"..

تضحك والدته وتسأله في تعجب: "مين بولو ده يا عمر؟؟"..

عمر في تلقائية: "الدبدوب يا ماما.. أنا بحبه وسميته بولو.. هو صاحبي هياكل ويشرب معايا وينام جنبي".. ينظـر للدبـدوب في براءة: "مش كده يا بولو"؟؟

تنام في عيني الأم فرحة بابنها..

في الصباح..

"تعالى افطر يا عمر مع بابا".. تـصيح والـدة عمـر مـن غرفـة الطعام..

"أنا قاعد مع بولو يا ماما"..

تضحك الأم في تلقائية محدثة والد عمر: "أهو على الحال ده من ساعة ما جاب سـي الأسـتاذ بولـو ده.. ومـش راضـي يـسيبه ولا حتى عايز ييجي ياكل"..

يضحكان سويا على "عمر" و"عمايل عمر" ويناديان مرة أخرى سويا: "يا عمر تعالى افطر وهات بولو يفطر معانا"..

يتكرر المشهد نفسه يوميا وترتفع معه ضحكات الجميع..

إلا أن اليوم أخذت والدة "عمر" تنادي عليه ولم تسمع صوت ضحكه ولعبه.. رفعت صوتها بالنداء: "عمر تعالى افطر".. تنظر للأب في قلق: "عمر ما بيردش ليه يا أبو عمر؟".. تسرع للغرفة.. تقلب فيها ببصرها بسرعة جنونية باحثة عن عمر.. تجده ملقًى على الأرض..

ينخلع قلبها.. تهرع نحوه: "ما لك يا عمر يا حبيبي؟؟"..

يشير بيده الصغيرة ببراءة الأطفال إلى رأسه: "ماما.. بطني بتوجعني"..

ويشير إلى بطنه: "ماما.. كله بيوجعني"..

تتطلع فيه.. لا يستطيع أخذ أنفاسه.. وجهه أصفر.. وجهه هزيل..

تصرخ: "الحقني يا أبو عمر"..

يهرعان به سويا إلى المستشفى..

بعد أيام من الفحوصات والتحاليل والأشعة.. بعد رحلة عناء من القلق والتوتر لم يذقا فيها طعم النوم خرج عليهما الطبيب:

"للأسف اكتشفنا فيروسا وإصابة في الدم بنوع خطير من الفيروسات.. مرض نادر جدا.. وهو مرض خطير.. وهذا المرض لا ينتقل إلا بالعدوى المباشرة للدم"..

تصرخ الأم: "ازاي جاتله؟؟ منين؟ وفين؟ وإمتى؟ ده أنا بخاف عليه من الهوا.. ده أنا بنضّف كل حاجة في الشقة وأعقمها.. ده حتى لعبه وهدومه وأكله وشربه.. كله بعقمه.. ده أنا حتى بغسل الخضار بالصابون.. ده مش بيخرج إلا معايا وحتى لسه ما راحش الحضانة.. جاتله ازاي؟؟ يا رب رحمتك ولطفك بابني يا رب.. اللهم عفوك وشفاءك يا الله"..

تتساقط دموعها.. تنهار.. تخور قواها.. يسندها زوجها رابتا على كتفيها في حنان: "مش كده يا أم عمر.. وحّدي الله.. إن شاء الله هيخف ويبقى كويس ويلعب ويملا الدنيا شقاوة"..

تصيح بصوتها المبحوح بعدما بُح من صراخها: "مش سامع بيقولك إيه: نادر.. يعني مالوش علاج.. سترك وعفوك ولطفك يا رب"..

يوميا تذهب والدة عمر إلى المستشفى تتابع حالته.. تصنع له ما يحب من "جيلي وكراميل وكاستر".. تجلس بجواره بالساعات.. تأتيه بكل ما يحب من لعبه وعرائسه..

تمر الأيام ثقيلة وتثقل معها حيرة الأطباء في علاجه.. فهو فيروس جديد ولا يعرفون أصله أو حتى التعامل مع المرض..

استيقظت والدة عمر اليوم مبكرا حتى تستطيع الذهاب لعمر في الصباح الباكر ولتنجز سريعا بعض الأعمال المنزلية قبل الذهاب.. قامت سريعا بعمل الطعام وتنظيف الشقة..

وحدها بقيت غرفة "عمر".. راحت ترتب الغرفة وهي تدمع مع كل لعبة تعيدها لمكانها ومع كل قميص تطويه له.. انسابت دموعها وهي تعدل "بولو" في جلسته على أرض الغرفة وراحت تتحسسه وتقبله دامعة العينين.. مفطورة الفؤاد.. وهي تردد: "يا

رب.. يا رب يقوم بالسلامة.. يا رب اشفيلي ابني.. يا رب رجعهولي"..

تحسست يدها وهي تعيده ذلك القطع أسفل وجه "بولو" الذي انكشفت منه حشوة الدمية.. تعالت على وجهها ابتسامة خفيفة وهي تتمتم: "ده انت بهدلت بولو خالص يا عمر من كتر حبك ليه"..

راحت تعيد أجزاء الحشو البارزة للخارج.. لمحت لونا أحمر على قطن الحشو!!

ما هذا؟ تفحصته.. دم؟ ما هذا؟ دم؟

أهذا دم عمر، أم دم من؟؟ لم تفهم.. أسرعت بالدبدوب إلى الطبيب المعالج.. أرته إياه..

ما إن رآه حتى أمرها بتركه على الفور وعدم لمسه وأسرع بها إلى المعمل..

طلب من طبيب التحاليل أن يحلل لهما تلك القطعة من القطن في الحال..

وعدهما بإخبارهما بالنتيجة غدا حال انتهاء التحليل..

مرت اللحظات.. بطيئة.. ثقيلة.. طويلة.. دون نوم أو راحة أو غفوة عين..

أسرع الجميع في صباح اليوم التالي لمعمل المستشفى..

فجاءهم طبيب التحاليل وهو في قمة الغضب والانفعال..

سأله الطبيب عن سبب انفعاله..

أجاب: "تصور يا دكتور.. ولاد (الكلب).. وصلوا لهنا؟!"..

اندهش الطبيب: "هم مين؟ ووصلوا لفين؟"..

أجابه طبيب التحاليل: العينة كلها إيجابية يا دكتور..

صاحت الأم: "يعني إيه؟"..

الطبيب: يعني هو ده سبب الفيروس النادر..

أجابت الأم: "بولو ازاي؟؟"..

رد طبيب التحاليل: "العينة أثبتت أن بقايا قطن الحشو بهذه الدمية كلها نفايات طبية ومخلفات مستشفيات.. قطن مستعمل

وملوث بجميع الأمراض المختلفة والدماء المختلفة.. ده غير تلوثه ببقايا المخلفات الآدمية من عرق وبول وخلافه.. كل الأنواع المختلفة دي من الملوثات والمخلفات والدماء الملوثة بالأمراض المختلفة والمتعددة تفاعلت مع بعض واندمجت واتحورت وأظهرت فيروسات جديدة.. لن يستطيع العالم اكتشافها في الوقت الحالي"..

تصرخ أم عمر صرخة مدوية: "يعني إيه؟ وابني؟ ابني ضاع؟ وإيه اللي جاب الزفت ده هنا؟ وليه؟؟ وعشان إيه؟!"..

منهم لله.. منهم لله.. حسبي الله ونعم الوكيل.. ربنا ينتقم منهم..

يلتفت الطبيب وقد علت وجهه إيماءة مريرة ملأها الحزن والأسى: "ها.. منين؟؟ الغش والجشع والطمع اللي ملوا وعموا قلوب الناس"..

"مستخسرين حتى في لعب الأطفال يا ولاد الـ..."؟

"بدل ما يشتروا حشو ولا إسفنج أسهل يتعاقدوا مع أي مستشفى صاحبه ضميره مات بدل ما يعدم المخلفات بالطريقة الآمنة

المنصوص عليها.. لأ وما له يـلا يبيعلـه طـن ولا طـنين ويطلـع بـأي مبلغ.. ويخالف حتى القانون والشرع والأخلاق والضمير..

والتاجر الجشع اللي عايز مكسب سريع ومـش مهـم المـصدر وغير مهمة الوسيلة أيا كانت مشروعيتها.. عايز يعلى ويكـبر علـى حساب الناس الغلابة وأطلال الفقراء.. يشتري الطن بتراب ورخص الفلوس ويصنع ويبيع..

خـلاص انتهـى الـضمير.. راحـت الأخـلاق.. علـى الـدنيا السلام"..

تنهار الأم وتصرخ: "يعني إيه؟ ابني دلـوقتي وضـعه إيـه؟ ابني.. ابني.. حد يجاوبني يا ناس"..

تقطع صراخها هرولة الممرضة مسرعة للغرفـة: "الحقنـا يـا دكتور.. الولد بيروح مننا.. مفيش نبض خالص"..

يهرع الجميع كالبرق نحو الغرفة.. تحاول الدخول معهم.. تدفعها الممرضة في حدة خلف الحاجز الزجاجي: "ممنوع يا مدام"..

تتابع من خلف الحاجز بعينين زائغتين عمليـة الإنعـاش

(CPR) والصدمات الكهربائية..

شفتاها وقلبها ترتجف.. عقلها مغيب.. متوقف عن العمل..

تشعر بخنجر مسموم يُغرس في قلبها.. يدميه.. لسانها يـردد كلمـة واحدة: يا رب.. يا رب.. تتتابع أمام عينيها الصور وتتعاقب.. كـل من ذهبت إليهم من أطباء للتداوي..

شرائط الأدوية الكثيرة التي كانت تبتلعها يوما بعد يوم..

تتذكر لحظة أن أخبرها الطبيب: "أنتِ حامل"..

تستعيد ولادته ولحظة ميلاده..

تتذكر أول لمسة من يدها لخده الرقيق الناعم..

أول كلمة نطقها في براءة: "ماما"..

معاكساته ومشاغباته ومناوراتـه عليهـا وضحكته العاليـة حينما تنزعج أو "يخضها"..

ينتفض الجسد الصغير الملقى على سرير الغرفة..

يعلو شاشة جهاز رسم القلب خـط طويـل مـستقيم تـصاحبه

صافرة حادة تدوي في الغرفة..

تتزامن معها تمتمة غير مفهومة هاذية.. ذاهلة: "ابن عمري.. عمري كله".. تدوي معها صرخة ملتاعة في أرجاء المبنى كله:

ابني..





إضاءة خافتة تشع في أرجاء الغرفة.. طرقات رقيقة تتحسس

ذلك الباب المغلق من الخارج بالترباس!!

"اتفضلي.. أنا مستنيكي من زمان"..

تُسمع ضحكة رنانة تدوي في أركان الحجرة..

"تشربي إيه؟"..

"لأ لأ.. مالوش لزوم"..

"لأ لأ.. لازم تشربي حاجة"..

"طيب إذا كان ولابد أشرب حاجة خفيفة.. أشرب..
أشرب.. أشرب من دمك"..

ينتفض الجسد الواقف في منتصف الغرفة.. يتصبب عرقا..
يجري.. يلتف حول نفسه فوق السرير الكائن في ركن الحجرة المظلم
كالقط الهرِم..

يدوي رنين جرس التليفون المقطوعة أسلاكه..

يرفع سماعته: "أيوه.. أيوه.. بتقول إيه؟؟ السهم نزل..
يعني إيه؟ بيتي اتخرب.. شقى العمر راح.. الطمع.. الطمع.. قلتلك
بيع يا لطفي.. قلتلك.. ما بعتش ليه؟؟ عشان طماع.. يا طماع.. يا
جبان.. يا حمار"..

يسمع من خلف الأبواب نشيجا وبكاء حارين..

مرة أخرى السرير الخشبي في ركن الغرفة ملاذًا..

يلمح ذلك العصفور على عتبة شباكه.. يجري نحوه.. يطير
فزعا..

يشرع هو في مخاطبته ويصاحبه بعينيه: "مش قلتلك وانت اللي ما سمعتش الكلام؟"..

"قلتلك هتاكلك الذئاب.. مش هتستحمل.. مش هتعرف تعيش.. دي غابة.. غابة!! انت اللي صممت ورحت"..

تزداد الإضاءة خفوتًا.. يستكين الجسد الملقى على السرير..

فجأة ينتفض.. يهرع مختبئا تحت السرير: "آه.. أنا كده في أمان"..

"أمان؟ ها.. ها.. ها".. ترن ضحكة في المكان..

"أمان؟ أمان ازاي؟ ماهم قتلوا كمال.. قلتلك.. قلتلك يا كمال.. اعمل اللي هم عايزينه.. انت اللي مارضيتش.. قلت مبدئي ها.. كان نفعك مبدأك.. قلت ضميري.. فين ضميرهم؟ قلتلك امضي قلت لأ.. قلتلك اشهد في المحكمة قلت لأ"..

"قلتلك بيع.. قلت لأ.. قلت اسرق.. اقتل.. انهب.. قلت لأ.. لأ.. وألف لأ..

عجبك كده يا كمال.. الله يرحمك"..

يسرع بالاختباء متحصنًا تحت السرير..

"أهو مخبأ من الغارة.. سلاحي في إيدي.. لازم يكون في إيدي.. مين بيضرب مين؟"..

"أنا بضرب أخويا.. أبويا.. بضرب مين؟ وليه؟ عشان إيه؟ قالوا اضرب.. ضربت..

قالولي موِّت.. اقتل.. قتلت.. وأنا زي ما قالوا عملت.. قالوا عشان تدافع صح.. اقتل ابن عمومتك.. صهرك.. ابن دينك.. بلدك.. آه"..

يزداد الطرق على الأبواب.. ترتفع أصوات الأجراس ورنين الهاتف..

يمسك برأسه بقوة: "آه يا دماغي" يلتفت يمينا ويسارا..

تُسمع صرخات مدوية من الخارج..

ينتفض الجسد انتفاضة الحياة..

يسقط في أرض الغرفة..



تراصت الأحلام المتعبة والآمال الضائعة.. حلما خلف الآخر أمام ذلك الشباك الحديدي المسيج..

الطابور طويل.. التف كثعبان خبيث يتلوى.. يخنقهم ويكتم أنفاسهم..

اندفع سائلا: "مش هنا التأشيرات"؟ أومأ أحدهم بالإيجاب.. اندس في قلب ذلك الثعبان الضخم الممتد المسمى

الطابور.. سمح له أن يبتلعه ويلتف حوله في هدوء.. مندهشا ظن أنه الوحيد الذي لم يستطع التأقلم.. ظن أنه الوحيد غير القادر على التقبل والتكيف.. ظن أنه الوحيد الذي يبحث عن ذاته.. حلمه وعن حريته..

الثعبان -عفوا الطابور- يتحرك ببطء.. فمه الواسع يتسع لتلك الحكايات والأحلام المتداخلة المتشابكة التي تتطاير حروفها فوق الهامات وفي الآذان المتعبة.. تلك الحكايات التي تقطر ألمًا ودمًا..

سمعها هو الآخر بوضوح تتحرك هنا وهناك..

"عاوز أعيش".. "أنا عاوز أتجوز بقى".. "لأ لأ أنا بقى أجيب بس العلاج لأبويا وأمي"..

تطاير حلم آخر من فوق رأسه: "أنا بقى عاوز أفك رهنية الأرض"..

"أنا بقى نفسي ألاقى نفسي" يسمعها من بعيد..

"أما أنا فنفسي أشتغل في مجالي".. تنامت إلى سمعه وهو مندس في ذلك الطابور الذي لا ينتهي..

آلمه ما سمع من هذا الشاب –عفوا "الحلم"– الواقف: "أنا بقى همّي تقيل.. ورايا عيلة عايزة تاكل وتشرب وتعيش"..

رد الحلم الآخر: "أنا كمان عاوز أجهز اخواتي وأجوزهم"..

لم يصنفه حقدا طبقيا حين سمعه.. بل تأثر له وأحس بغصة لسماعه: "نفسي أعيش زيهم.. يعني ما ليش نفس أعيش زي الهانم والبيه؟!"..

جاءته صرخات ملتاعة من بعيد: "أُمال أنا بقى أعمل إيه؟ عيلتي كلها في الشارع.. عايز ألاقي حتة تتاوينا من برد الشتا وكلاب الطريق"..

تنامت إلى مسامعه تلك الحسرة الواضحة في النبرات: "أنا خسرت كل حاجة.. كل حاجة.. فلوسي وتجارتي ومالي.. أنا مش قادر أستحمل.. مش عايز أقعد يتنصب علي من مين؟؟ من ابن بلدي؟!"..

لم يزل الأمل يدق.. يسمعه الآن من بعيد يحاول الخلاص: "أنا عايز أعمل تجارة لوحدي خاصة بيا وأقب بقى على وش الدنيا"..

عادت الحسرات والآلام من جديد..

"أنا مش عايز هنا.. مش عايز حياتي ومستقبلي يضيعوا..

مش عايز أشتغل كنَّاس ولا عامل صرف صحي بمؤهل عالي"..

آخر يسمعه وراءه: "أنا مش عايز هنا.. شبعت نصب وكدب.. زيف وغش.. محسوبية وفساد.. أنا عايز أمشي.. مش عايز أقعد.. إنشالله أرجع جثة في خشبة"..

تشابكت الأصوات.. تعالت.. أحس بقرع الطبول يدوي في أذنه.. تلك الطبول التي تطرد ذلك المجهول البشع خوفا من الفقر.. البطالة.. المرض.. القهر.. الحسرة.. الظلم..

إنه الخوف.. الخوف..

تعالت الطبول.. دقات قرع الطبول بركان ثائر في رأسه..

توقف أمام الحسرات والآهات "ده مش أنا لوحدي؟!".. أيقن أخيرا..

"أنا كنت فاكر نفسي بس.. كلنا هنمشي مين هيفضل؟"..

"مين هيبني؟ مين هيبدأ؟".. محدثا ذاته..

أحس بالأرض الصلبة الراسخة التي تحتويه وتحتوي

الأمس بأفراحه وأتراحه.. الجراح والآمال.. أحـس بهـا تجتذبـه.. سمع صوتها يناديه.. حقا صوت هزيل ضعيف.. لكنه سمعه بوضوح يستعطفه ويستبقيه..

تقدم خطوة نحو الشباك الحديدي..

لقد جاء دوره.. سمع اسمه.. جاءت اللحظة الموعودة.. شـعر بقدميه تلتصقان بالأرض.. تتشبثان بالجذور.. شعر بأنفاسه تختنق في صدره كسمكة اقتلعتها شبكة صياد.. شعر أن روحه تخرج منه.. أحس بقلبه يقفز من بين ضلوعه ويخفق بشدة.. شاهد تلك الأمنيات والأحلام تحلق عاليا.. قرر أن ينسلخ من ذلك الثعبان الخبيـث.. أن يبحث عن روحه هنا.. أن يحلق وراء حلمه في سمـاء الحريـة.. وألا يكون من قارعي الطبول.. قرر ألا يكون منهم.. ولحِق بحلمـه الـذي انطلق مع الآمال والأحـلام يتنـسم عـبير الأمنيـات ويتطلـع إلى ذلـك المستقبل المبهر..





هرول وهرول.. وحده.. يسمع خطاه وراءه.. يجري أسرع وأسرع.. اختلجت أنفاسه وتدافعت خطواته.. إنه يهرول وراءه.. يتبعه.. يسرع أكثر في خطاه.. هل هو ذلك الرجل الذي خدعه منذ سنين يجري وراءه ليقتص منه؟؟ هل هي تلك الفتاة التي أحبته وخدعها.. تجري لتنتقم منه؟؟ هل هو والده الذي هجره منذ سنين وتركه لمصيره بعد أن رعاه ورباه وكَبّره؟؟

هل هي أمه التي جحدها ولم يبرّ بها؟؟ هل هو ذلك الشخص الذي نصب عليه في ماله؟؟

هل هو ذلك الزميل الذي أوشى به.. أم هذا العميل الذي رشاه؟؟

هرع أكثر وأكثر.. يجري بكل ما استطاع من قوة.. إنهم يلاحقونه.. يخشى أن يتعثر أو يقع.. يتحسس خطاه وينظر أمامه في رعب.. الخوف يسيطر عليه ويملأ قلبه.. والنهايات السوداء المأساوية تتعاقب أمام عينيه.. يرى نفسه في الصور كلها: قتيلا.. ممزقا.. يرى نفسه صريعا.. مخنوقا.. يسرع أكثر.. دقات قلبه ترتفع.. وتزداد معها نسبة الأدرينالين في جسده.. لا يستطيع التنفس..

للحظة توقف ليلتقط أنفاسه.. رغما عنه نظر خلفه نحو من يتبعه.. شاهده.. اندهش.. جحظت عيناه.. فغر فمه..

لم يكن إلا ظلّه..



في لحظة حنين يأخذك الاشتياق لحضن دافئ تلقي به همومك وأحزانك وأوجاعك.. تبحث عن يد تربت على كتفيك وتمسح دموعك حينما تشعر أن العالم كله -على اتساعه- يطبق عليك ويخنقك فتبحث عن متنفس.. عن مخرج.. تبحث وتبحث عن أذن أمينة تفضي إليها بأسرارك.. تبحث في كل من حولك فتستيقظ فجأة على الحقيقة وتكتشف "إنه مفيش".

تبحث في نوتة تليفوناتك التي امتلأت عن آخرها بأرقام المعارف والأهل والأصدقاء والأحباب ولم يعد بها مكان فارغ لرقم

واحد.. تفرها فرًّا صفحةً صفحة.. حرفًا حرفا.. ورقمًا رقما.. فتكتشف "إنه مفيش"..

تسرع إلى هاتفك المحمول الأحدث موديلا.. الذي انتقيته خصيصا وأنت تشتريه لتتسع ذاكرته لعدد مهول من الأرقام.. تقلِّب في تلك الذاكرة المكتظة عن آخرها بما يتعدى الألف اسم والتي دائما ما تعلن شدة حمولتها برسالة: "memory is full".. تقلب وتقلب فوق وتحت.. مارا باسم اسم.. متذكرا البعض ناسيا البعض الآخر.. تكاد لا تتذكره نهائيا.. البعض تعرفه والبعض لا تدري أين ومتى وكيف لك بهذه الأرقام.. تقلب ذاكرتك تعتصرها باحثا عن وجوه أصحاب تلك الأرقام.. تتذكر بعضهم والبعض الآخر لا تكاد تذكره بل وتتعجب وأنت تحسب عدد تلك السنوات التي مرت على معرفتهم!! فتكتشف أنك نسيتهم ونسوك من سنين ولم يتبقَّ منهم إلا تلك الأرقام فتكتشف "إنه مفيش"..

تهرع نحو حاسبك تفتح "إيميلك" تفاجأ بهذا العدد المهول الذي يملأ الـ"إنبوكس Inbox" من الإيميلات التي تعرف بعض

أصحابها والآخر إعلانات والآخر "forward"..

تتفحصها بعينك جمعيها باحثا عن غايتك ومرادك فتكتشف "إنه مفيش"..

تغلق الإيميل وتسارع إلى الـ"فيس بوك" الذي تعدت قائمة أصدقائك فيه المائتين.. تبحث في قائمة الأصدقاء عن تلك اليد وهذه الأذن.. تبحث وتبحث.. فتجد "إنه مفيش"..

"تكوّر" نفسك وأنت تدسها في سريرك.. تلتحف بأغطيتك الكثيرة تختفي فيها.. يسحبك السرير كالرمال الناعمة.. فتختفي فيه أكثر.. تترك له نفسك لتنساب فيه.. فتكتشف حينها أنه لا يد ولا حضن سواه وحده يفهمك.. يسمعك.. يربت على كتفك وتجفف مخدته دموعك.. تفضي إليه بأسرارك.. يسمع منك دون انقطاع.. دون استياء..

في لحظة يأس وأمل جديد تمسك بهاتفك المحمول ترسل رسالة من 3 حروف: "SOS"..

إلى العالم أجمع.. إلى المجهول.. إلى الغد..تعبث يداك بعشوائية على ما تطأه يداك من أرقام ثم تضغط "إرسال" تود لو ترسلها للعالم أجمع.. ترتفع ابتسامتك الهستيرية وأنت ترى تقرير التسليم..

"DELIVERY REPORT"..

حينما يأتيك الرد فتكتشف أن الإرسال "FAILED"..

حتى رسالتك التائهة في أغوار المجهول رفضتها الحياة هي الأخرى..

تغرق وقتها في بحر أحزانك العميق.. تضربك بكل قوة أمواج آهاته.. تصارع أمواجه بما تبقى لك من حياة وأنفاس.. تضرب بذراعيك بعشوائية وقوة في الاتجاهات كلها.. ترى بعينيك فقاعات الهواء الأخيرة تتصاعد منك نحو السطح.. بكل ما تبقى لك من حلاوة روح.. تضرب أكثر.. "تتخدل" ذراعاك.. تنهار مقاومتك.. تتيقن أنه لا فائدة ولا نتيجة.. تستسلم في هدوء وسلام وأنت ترى الفقاعة الأخيرة وهي تصعد أمام عينيك لتستقر على صفحة الماء.. ثم

ما تلبث أن تتلاشى في سرعة.. معلنة اعتزال الحياة.





وربما كان نقودا معدنية.. نعم.. "يمكن أجيب بيها حاجات حلوة".. هكذا قالت..

تقدمت نحو البريـق في شـغف.. كلمـا تقـدمت رأت نفـسها مرارا ومرارا في المرآة تتـزين وتتجمـل.. صـارت بجانبـه.. انحنـت لتلتقطه..

لم يكن إلا.. ورقة شيكولاتة..



لم تكن تلك أولى صرخاتها.. ولن تكون الأخيرة.. لم تكن دموعها تلك قطرات الندى التي تزين عمرها.. بل هطلت من قبلها سيول الشتاء القاسية..

لم تجد إلا هي.. مؤنسة الوحدة وخير صديقة.. دفأتها.. مسحت دموعها.. هي الأخرى بللتها دون اكتراث.. تكن لها الكثير والكثير من المشاعر الخفية والمعلنة.. كثيرا ما قالت لها.. صارتا

قلبا واحدا.. وتعترف لها كل يوم في المساء بأسرارها.. بما لا يعرفه الآخرون.. تعترف لها حتى بما لا تكتبه في مذكراتها اليومية.. بل وتذكرها في تلك المذكرات..

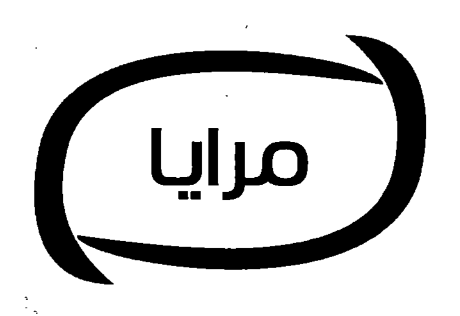
صفحة 20 – المقطع الثاني:

بالأمس بللّتها وأغرقت ملابسها.. لم تكترث.. لم تثُر.. لم تهتم.. بل دفأتني وشجعتني أن أبكي دون خوف على صدرها الحنون الدافئ اللين.. أخذتني في حضنها الفضفاض.. فما أرحب صدرها وأقوى تحمُّلها.. تشاركني في كل شيء.. كل شيء..

أسفل الصفحة:

كم أُحبك..

شكرا مخدتي....



في تلك الغرفة انتشرت المرايا علـى الجـدران.. في الأركـان.. في الجوانب.. في كل مكان..

رأت نفسها عشرين مرة.. لا.. ثلاثين.. بل أربعين.. كـلا.. خمسين.. لا.. أكثر بكثير..

رأت نفسها كثيرا كثيرا: هذه أنا.. وهـذه أنـا تلـك القابعـة هناك أيضا أنا!! أنا هذه؟؟ لا لا لا..

تلك التي هناك أنا؟؟ إنها جميلة..

أما تلك في الركن فهي سيئة.. ليست أنا.. لا بـل إنهـا أنـا..

ماذا؟ ! حققت.. دققت.. إنها حقا أنا..

هذه أجمل.. لا تلك أحلى.. لا لا هذه ألطف..

لا أصدق.. تلك سيئة وشريرة.. أهي الأخرى أنا؟؟

أما هذه التي على الجانب فإنها غاضبة.. ترى ممَّ؟؟

أما هذه فدافئة وحنون..

الأخرى هادئة.. أما تلك فإنها صاخبة متحركة وجريئة..

تلك طيبة وصادقة..

أما هذه هناك فكاذبة.. لا أريد تلك.. أريـد الأخـرى.. لا لا

إنهم أنا..

هرعت مسرعة خارجة من الغرفة قائلة: كلـهم أنـا.. أنـا..

إنهم أنا.. أنا..



وهي تعبر رغما عنها لم تـشاهده.. اصطدمت بـه.. رفعـت رأسها لتعتذر وتمضي..

نظرت لحظة طويلة في صمت.. لم تتوقـع أن تـراه بعـد تلـك السنين كلها.. نظرت لهـذا الطفـل الـبريء الجميـل الرائـع ممـسكا يده..

عادت ترفـع نظرهـا إليـه.. لم تبـدِ أي مـشاعر خاصـة علـى وجهها.. ذلك الوجه الذي كثيرا ما أمضى ساعات في تأمله ووصفه.. ذلك الوجه الذي عشقه.. أحبه.. جرحه.. خانه وخدعه..

مع الأيام صارت أقوى.. قهرت هذا الضعف المسمى "حبه"..

نسيت.. حقا بصعوبة ومرارة.. لكنها الآن تنظر إليه دون أن يتحرك قلبها كما كان يفعل دائمًا..

حيَّته.. ابتسمت.. أخرجت من حقيبتها قطعة شيكولاتة أعطتها للصغير "طفله"..

"فرصة سعيدة".. قالتها ومضت رافعة الرأس في شموخ وكبرياء..



في اليوم نفسه الذي جاءت قومها به.. اتهموها بالخطيئـة.. أقسمت.. لم يصدقوها.. أشارت إليه.. قالوا: أنكلم من كـان في المهـد صـبيا؟ ولـولا أن أنطقـه الله بـالحق مـا كـانوا صـدقوها.. اتهموهـا.. تألمت.. بكت من داخلها.. تألم قلبها.. شعرت بـالمرارة في نفـسها.. إنـها.. اتُهمت بالخطيئة..

ظنوا أنهم الرب في الأعالي فحكموا عليها.. نسوا أنهم بـشر

وقد يخطئون الحكم.. و"من كان منكم بلا خطيئة فليرجمني بحجر"..

بكت من قلبها.. جُرحت.. ظُلمت.. اتُهمت.. قاست.. عانت.. نُبذت.. انزوت.. انتبذت مكانا قصيا..

دعت.. ابتهلت.. صبرت.. ذرفت الدمع..

نُجدت.. نُصرت.. بُرئت من الله.. حُميت.. رُدت لها الكرامة والإباء.. عاشت بالعزة والكبرياء..

أم المسيح.. السيدة مريم سيدة نساء العالمين..

في اليوم نفسه حينما جاءت أهلها تبكي.. تنفي ما أشاعوا.. صدقوا.. أقسمت.. بكت من قلبها وتألم فؤادها.. مَرضت.. ظُلمت.. شعرت بالمرارة.. لقد اتهموها بالخطيئة..

ظنوا أن لهم المُلك فحكموا عليها.. نسوا أنهم بشر وقد يخطئون الحكم.. و"أن كل ابن آدم خطاء.. وخير الخطّائين التوابون".

بكت من قلبها.. جُرحت.. ظُلمت.. غُدر بها.. اتُّهمت..

قاست.. عانت.. نُبذت.. انزوت.. دعت.. ابتهلت.. صبرت.. ذرفت الدمع..

نُجدت.. نُصرت.. بُرِّئت من الله.. حُميت.. رُدت لها الكرامة والإباء.. عاشت بالعزة والكبرياء..

أم المؤمنين السيدة عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم..

إنهن نساء في كتب السماء..

في اليوم نفسه الذي خرجت فيه صديقتي عائشة إلى مظاهرة تأييد أطفال القدس هاتفتني مساءً وهي ثائرة منفعلة ومنهارة.. قالت لي إنني أشعر بالقهر والحسرة والظلم..

في ذاك اليوم نفسه جاءت صديقتي مريم من المظاهرة نفسها وهي متأثرة واجمة عابسة وقالت إنني أشعر بالقهر وخيبة الأمل والظلم..

في اليوم نفسه الذي انخرطت فيه عائشة في البكاء فقلت لها: صلِّ على النبي.. ذرفت مريم الدموع فهدهدتها قائلة: صلِّ

على المسيح..

في اليوم نفسه الذي كتبت فيه صديقتي عائشة على صفحتها: "إن الله يدافع عن الذين آمنوا".. كتبت فيه مريم: "إن الرب يدافع عنكم وأنتم صامتون"..

في اليوم نفسه الذي بكت فيه مريم.. ظُلمت.. اتُّهمت عائشة وبكت..

في اليوم نفسه الذي استنجد فيه جعفر بنجاشي الحبشة قائلا: فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا.. وحالوا بيننا وبين ديننا.. خرجنا إلى بلدك.. واخترناك على من سواك.. ورغبنا في جوارك.. ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك. قال النجاشي: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي..

في اليوم نفسه الذي قال فيه عمرو بن العاص لنجاشي الحبشة: إنهم يشتمون عيسى وأمه.. فقال النجاشي: ما تقولون في عيسى وأمه؟ فقالوا قول الله في سورة النساء: "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه..".. وقرأ جعفر من

سورة مريم: {*وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا*}.. فقال النجاشي: والله ما زاد المسيح على ما تقولون نقيرا.. إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة..

في نفس يوم تحرير القدس جاءت المرأة الصليبية إلى صلاح الدين وهي تبكي بحرقة ومرارة.. قالت: أخذ جندك صغيري.. فترجل عن جواده ووقف أمامها مخاطبا جنوده: هناك من خالف أمر الله.. لن أبرح مكاني حتى تعيدوه إليها.. وظل واقفا حتى أحضروه.. فداعبه وأعطاه لأمه وهو يبكي..

في اليوم نفسه الذي شكت المرأة القبطية عمرو بن العاص إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب.. فخاطب ابن الخطاب عَمرًا قائلا:

ما كسرى بأعدل منا يا عمرو..

في اليوم نفسه الذي شكا فيه المصري للخليفة عمر تعدي محمد بن عمرو عليه.. استقدم عُمر عَمرًا وابنه محمدا وطلب من المصري أن يقتص لنفسه من محمد بن عمرو -ابن الأكرمين- ثم التفت إلى عمرو وقال له: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟"..

في اليوم نفسه الذي قُتل فيه مصلو الحرم الإبراهيمي في الخليل.. قُتل مصلو كنيسة القيامة.. وفي نفس يوم حصار المسجد الأقصى حاصروا كنيسة المهد في القدس..

في اليوم نفسه الذي أشار دقلديانوس لجنوده بتنفيذ الحكم.. أطلقوا الجياد الجائعة في الاتجاهات الأصلية الأربعة بعد أن ثبتوا كل طرف من أطراف المسيحي في جواد منهم وأطلقوا كلا منها في اتجاه..

في اليوم نفسه دفنت قريش المسلم حيا في الرمال.. ووضعت على صدره حجرا ودهست رأسه بالنعال..

في اليـوم نفـسه الـذي انـدلعت فيـه خبيئـة الإسـكندرية والعمرانية ونجع حمـادي والزاويـة وفرشـوط والمنيـا وقنـا والـصف وإمبابة.. جاءتني عائشة تبكي وتقول: إنني أشعر بالحزن والمـرارة واعتصار القلب..

وفي يوم الاشتعال نفسه جاءتني مريم وهـي تبكـي وقالـت: أشعر بالحزن والمرارة..

في اليوم نفسه الذي بكت فيه مريم بكـت عائـشة.. هـو ذاك اليوم.. يوم أن بكت صديقتاي..





تـشهد تلـك الـساحة يوميـا علـى نعليهـا اللـتين ذابتـا مـن خروجـها للعمل صباحا ومساء..

لو تكلمت لنطقت.. لقالت إنها تشفق عليها وتتألم لهـا بعـد أن أصبحت المسئولة عن أسرتها بالكامل بعد موت أبويها..

تـشهد تلـك الـساحة يوميـا سـخافات الـشباب المتنطـع في الطرقات وعلى الأرصفة ومضايقاتهم لها..

شهدت ذات مرة سؤال عم حسن البقال الذي يبلغ من العمـر أرذله طلب يدها..

بللتها أيضا دمعة هاربة فرت من عينيها ذات مساء أثناء مرورها رغما عنها..

شهدت فرحتها حينما وجدت مرة جنيها ملقى على الأرض فانحنت لالتقاطه..

إنها لن تبوح لأحد.. لن تشي.. إنها كاتمة أسرارها الحميمة..

لن تنسى فرحتها حينما طلب منها سمير جارهم يدها..

ولن تنسى تضحيتها ورفضها القاطع حينما خيَّرها بينه وبين أخواتها..

دمعة أخرى بللّتها من أجل أخواتها الصغيرات..

شهدت الساحة الكثير والكثير.. ولا تزال تشهد وستشهد..
إنها دفتر مذاكراتها اليومية المفتوح..

وتقسم الآن إنها تحييها حين تراها يوميا كل صباح ومساء..



الأضواء كلها مسلطة عليها.. تلك النجمة المحبوبة الشهيرة التي يحبها الجميع بل يطمح شباب العشرينات إلى أن يكون في مثـل شهرتـها ومجدها..

جلـس أمامهـا المـذيع اللامـع يـصلح مـن هيئتــه ويعتـدل في جلسته استعدادا للقاء الرهيب الذي انتظره الجمـاهير مـن عـشاقها كثيرا لتطل عليهم أخيرا على شاشات الإعلام.. جهز أسئلتـه..

الجميع يستعد.. الأضواء والكاميرات مسلطة..

ارتفع صوت المخرج: سكوت.. أكشن..

المذيع بعد تحيتها ومقدمة رائعة تلخص تاريخها وتعدد جوائزها وتسرد مساهماتها الخيرية والاجتماعية.. فاجأها بسؤال -لم يتفقا عليه-: بعد طول رحلتك.. هل أنتِ سعيدة؟؟

اضطربت.. لقد فاجأها سؤاله.. تماسكت.. سارعت برسم ابتسامتها ورنت ضحكتها في أجواء الأستوديو..

تلاحقت أمام عينيها المشاهد كشريط السينما الذي تشاهده بعد انتهاء تصوير مشاهدها.. مرت أمامها الصور متعاقبة.. متلاحقة.. مرارة أيامها.. هجر زوجها.. موت ابنها.. فراق أحبابها.. خداع أصدقائها.. خيانة الأقربين لها.. ليلها المظلم الباكي.. طفولتها الصعبة..

ابتسمت مرة أخرى ابتسامة عريضة اعتادت أن ترسمها طويلا على مدى سنين العمر أمام الشاشات والكاميرات.. عند لقاء معجبيها ومريديها..

سارعت بضحكة عالية تداري بها دموعا غزيرة ترقرقت داخل عينيها وقلبها.. تخشى أن تخدعها هي الأخرى وتذرف على

وجنتيها..

أومأت برأسها بحرارة في فرحة -مصطنعة-: "وهـو في حـد بعد اللي قلتله ميعيشً سعيد؟ طبعا سعيدة..





طرقات الباب تدق حسب الموعد المحدد سلفا الذي طلبه صديق المرحوم -زوجها- جزاه الله خيرا عنها هي وابنتها الشابة اليافعة التي تنطلق للحياة.. تعهدهما برعايته وحمايته وشملهما بعطفه ومساندته بعد أن توفي صديق عمره -زوجها- منذ عدة سنوات.. لكنها تشعر هذه الأيام منه بمودة زائدة وتلحظ اهتماما مكثفا يثير الانتباه ويدفعها حدسها الأنثوي دفعا إلى أن في الأمر شيئًا ما..

طلب منها أن تحدد له موعدا -أشبه بالرسمي- قبلت متعجبة.. متوقعة أنه قادم من أجلها.. تستشعر غريزتها الأنثوية أنه

قادم لطلب يدها..

لكم لاحظت نظراته لهـا.. رغبتـه في المرور للسؤال كـثيرا.. السؤال الدائم عن صحتها وعن ابنتها.. لابد أن في الأمر شيئًا..

قبـل الموعـد.. جهـزت كـل شـيء.. واجـب الـضيافة.. إعـداد الشقة..

أخرجت صندوق ملابسها الخاصة بالمناسبات الـذي لم تفتحـه منذ زمن..

لم تـنسَ أن تتوقـف أمـام المـرآة تـصلح مـن زينتهـا.. وتهنـدم أناقتها..

خرجت متأنقة.. مبهرة.. مشرقة.. لم تعرفها خادمتها!

رن الجرس.. سارعت لتفتح.. استقبلته بالترحاب.. هو الآخر دخل في خجل –على غير عادة– استغرق في الكلام والحديث المعتاد عن الصحة والأحوال والأهل والعيـال.. إلى أن أردف: بـصراحة أنـا جـاي طالب إيد بنتك.. ها.. قولتي إيه؟؟

أحـست بمطرقـة مـن العيـار الثقيـل تهـاوت فـوق رأسـها..

استأذنته في عجل مدعية أن هناك شيئًا على النار..

فرت من عينيها دمعة حائرة.. تبكي أم تفرح؟؟

ضحكت في هستيريا.. أخطأ حدسها الأنثوي هذه المرة..

تمالكت نفسها من أجل ابنتهـا.. عـادت.. توقفت أمـام مـرآة الطرقة.. تحسست الخصلات البيضاء في شعرها التي "تسرسبت" منها في غفلة عبر سنين العمر..

لمحـت تلـك التجاعيـد الغـادرة الـتي هاجمتهـا.. ابتـسمت متمتمة: هي..



أستيقظ كل صباح وأذهب إلى عملي وما إن أصل حتى تبدأ النشرة اليومية.. وهي تنقسم لفقرتين إخباريتين.. الأولى: فقرة نميمة اليوم.. وهي فقرة مبتكرة جدا ودائما يتم تحديثها لتكون "أب تو ديت" وتبدأ في الأصل من همهمات الزملاء والزميلات على بعضهم البعض وبالتأكيد يعني مش عايزة ذكاء "من ورا بعض"..

"شفتي؟ النهارده فلانة اتخطبت.. لا.. لا.. دي عدت.. وشفتي الخاتم اللي لابساه؟".. تهمهم في أذني الأخرى.. لأ.. لأ.. شفتي فلانة؟ النهارده لابسة طقم جديد.. باين وراها مشوار مهم..

أتمتم في سري: يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.. محاولة التركيز في العمل.. وما إن أبدأ في مهامي حتى تستوقفني أخرى: "شفتي زميلنا إياه؟ دايما بشوفه واقف مع فلانة.. باينِنا هنسمع أخبار قريب"!!

ربي.. ألن نترك الآخرين في حالهم أبدا؟

أشرع مرة أخرى منخرطة في عملي تأتيني رابعة: "مش فلانة خلعت الحجاب النهارده؟!"..

أحاول جاهدة كبح جماح هذه الرغبة العارمة في النميمة اليومية من الجميع قائلة: "ربنا يهدي الجميع.. خلينا في الشغل يا جماعة"..

يأتي صوت أخرى: "إنتي هتعيشي دور الواعظة ولا إيه؟"..

أعاود التمتمة في سري مرة أخرى: "أستغفر الله العظيم"..

تسارع هي بالرد (بتغلوش يعني): "إنتي أصلك ما تعرفيش حاجة.. أصل فلانة فاكرة نفسها حاجة وسايقة فيها أوي.. وانتي ولا واخدة بالك"..

يا الله.. الرحمة!!

ما إن تلبث أن تنتهي فقرة النميمة حتى تبدأ الفقرة التاليـة في النشرة.. آه نسيت أقـولكم: اوعـوا تروحـوا كـده ولا كـده.. هتعرفوهـا حالا..

عُدنا..

معلش مش هاطول عليكم.. يوميا أجدها كـل صباح.. تقـابلني بمجرد أن أدلف إلى العمـل.. بـل وتنتظرنـي أحيانـا.. منهـا الـصحيح ومنها غير الصحيح.. تتساءلون: ما هـي؟؟ الـشائعات طبعـا.. وهـو في غيرها؟!

يوميا أبدأ صباحي في العمل بما لا يقل عن خمسة أخبار جديدة "نوفي" بنار الفرن.. وما إن يبدأ الجميع البحث ولجان التقصي المنبثقـة من لجان الفحص والمحص والتمحيص.. حتى تـصل تلـك الأخبـار إلى النتيجة اليومية المعتـادة: 3-2.. وهـذه ليـست نتيجـة مبـاراة مـصر وساحل العاج في نهائي أفريقيا في الثمانينيات.. إنمـا نتيجـة التحليـل الإخباري اليومي؛ حيث نخلص إلى أن ثلاثـة أخبـار علـى الأقـل غـير صحيحة.. إشاعات يعني (شائعات بالفصحى اللي خايفة عليها تندثر) وخبرين صحيحين.. يلا أحسن من خمس شائعات برضو ولا إيه؟؟

ما أكثرها تلك الشائعات.. فلانة وفلان هيتخطبوا أكيد قريب (أصلهم شوهدوا في موقع الجريمة.. قصدي العمل.. أكثر من مرة يتحدثون سويا).. طيب وماذا في هذا؟ عايزة أفهم!!

فلانة اطلقت.. آه.. جاية النهارده مش لابسة دبلة.. ويمتد ذلك الزحف الآثم ليصل للعمل ذاته: "شفتي فلانة هتترقى عشان خالها يعرف المدير.. ولا علانة عايزة توصل للمنصب بأي طريقة.. ولا زيد بيتنطط على أكتاف زمايله.. أما عبيد فزمايله قدموا فيه شكوى وهيمشوه"..

صارت تلك الوجبة الصباحية التي لا يستغني عنها الجميع ليقيم صلبه حتى آخر اليوم.. لأ.. عندهم حق.. أُمال هيواصلوا يوم العمل الطويل ازاي؟! قصدي اللي كان اسمه عمل!!

تسمع وأنت في مكانك: "في قرارات جديدة وتعليمات هتنزل دلوقتي.. لأ ده في لوايح هتتلغي. لأ لأ.. دي هتتطبق.. لأ دول هيزودوا المرتب.. لأ.. انتم ما تعرفوش.. دول هيخصموا من المرتب بند جديد"..

شائعات.. شائعات.. شائعات يوميا..

آه.. يبدأ الخبر مجرد كلمة في فم أحدهم.. ثم يسقط في مفرمة الأفواه الكثيرة ويتساقط في قِدر النميمة ويقلب مضافا إليه في كل مرة يتوقف فيها عند أحدهم شوية ملح وقليلا –وللحق كثيرا– من الفلفل.. وينتهي بعد زيادة تلك التوابل والبهارات وبعض الأعشاب العطرية والشطة أحيانا إذا لزم الأمر إلى كارثة محققة وفاجعة مؤسفة.. لتفاجأ يوميا بأخبار ليس لها أي أساس من الصحة..

لتصل يومًا إلى العمل وتسمع أنك مهاجر وهتسيب البلد ووجدت عملا أفضل بكثير.. ومسافر تستلم الشغل الجديد وانت لسه مقدم على سُلفة أول امبارح بضمان مرتب سنة!!





من دون اتفاق مسبق وبحركة تلقائية عفوية كأنما عقد الجميع اتفاقا خفيا.. التفت الجميع في حركة ولحظة واحدة وأسقطوا جميعا نظرة عميقة على ميدان التحرير الذي نعبر فوقه الآن على كوبري أكتوبر أعلى الميدان.. التفت الجميع يمينا محاولا التقاط صورة سريعة لميدان التحرير العظيم في خفة مع دوران الأتوبيس السريع –مش سريع أوي يعني.

رمقت أنا الأخرى ميدان التحرير بنظرة مع الناظرين عفويا على

غير تخطيط مني وما لبثت أن عـدت ببـصري -أسـرع مـن البـاقين- ربمـا لأنني أحفظ المكان عن ظهر قلب.. فهو طريقـي يوميـا ذهابـا وإيابـا حيـث أسكن.. وربما لأنني أراه يوميا في أيام الثورة أو بعـدها.. إلا أنـني شـعرت تلقائيا بنفس ذاك الشوق وتفجر بداخلي شعور غريـب ومهيـب يجتـاحني كلما مررت بميدان التحرير.. حيث شربت الأرض الدماء والحرية..

اقتطع الميدان ومرتادوه وأحداثه وبائعوه فصولا كثيرة من كتاب ذكرياتي..

أتاحت عودتي السريعة من التفاتتي أن أتأمل الجميع ومـازالوا ينظرون بفخر وكبرياء إلى الميدان الكبير.. رفرف قلـبي لهـذه المـشاعر المتدفقة التي لا توصف والتي أراهـا أمـامي.. تخـتلج النفـوس.. تغمـر القلوب بطاقة خفية مشعة تظهر جلية تعلو الوجوه..

إلا أن النظرات على تعددها اختلفت.. فبعضها نظرات اشتياق بعضهم من الثوار "هفهم" الشوق لـذلك الميـدان الكـبير الـذي افترشـوه ليـالي قارسـة الـبرودة في عـز الـشتاء مـن أجـل الحريـة.. الكرامـة والإنسانية.. لهم فيه ذكريات وأيام لا تُنسى.. أخذ مـن أعمـارهم ومـن عمر ذكرياتهم الكثير.. حفر فيها طرقا لا تنسى وسـرى فـيهم مـسرى

الدم في العروق.

نظرات أخرى امتلأت بالفضول تستكشف ماذا يحدث في "تحرير القاهرة الكبير".

بعضها لم تكن إلا نظرات سخط وازدراء -فاختلاف الآراء سنة الحياة- ساخطة تلك النظرات على التحرير و"بتوع التحرير" الذين يعطلون أمن البلاد ويعرقلون عجلة الإنتاج -من وجهة نظرهم.

لمحنا جميعا بعض المعتصمين في الميدان.. وهنا صاح الكمسري في ثبات بتلقائية المواطن المصري: هو كل اللي غضبان هييجي هنا وينصب الكراسي؟ اللي غضبان من أمه ولا أبوه واللي من عياله واللي من -ولا مؤاخذة- المرة اللي خانقاه -اختصارا لكلمة امرأة عند العوام وبعض الطبقات الدنيا- وتقولي اعتصام.. اعتصام إيه؟؟ ولاد الأ... ما خلاص اللي جه جه من الأول.. ثم يردف بحكمة السنين: خلي بالكم الشيء لما يزيد عن حده ينقلب لضده.. كفانا بقى.. وكل واحد يروح يشيل كرسيه..

صاح أحدهم بعد أن حفزه رأى الكمسري الذي كان واضحا أنه يشاركه فيه: ربنا ياخدهم.. ما شفناش من ساعتهم أي خير.. كفاية

وقف الحال اللي احنا فيه.. ده خراب بيوت ده.. إحنا أرزقية على باب الله.. شغل مفيش.. لا عارفين ناكل ولا نشرب ولا نأكل عيالنا وبطّالين (بلا عمل) من شهرين.. تقدر تقولي خدنا إيه من يوم ما عملوا اللي عملوه؟ ولا حاجة إلا وقف الحال.. الله يخرب بيوتهم!

يشاركه الرأي شاب يبدو أنه من فئة المهنيين مجعد الشعر بعد أن ضرب علبة جيل كاملة في شعره وفرقه على جنب: إيه وقف الحال ده؟.. ودِيني لأروح أغزّهم العيال دي.. دي عيال باينها ولاد ناس لاقية تاكل وتشرب ومش شايلين هم حاجة ولا عارفين حاجة.. ولا داقوا جوع ولا فقر.. ودين أمي لو قالوا هننزل تاني لنغزّهم واحد واحد ونُقفلهم بالسنج.. وخصوصا اللي عايزين يقولوا لأ دول -يقصد لا للتعديلات الدستورية- إحنا عايزين الشغل يرجع والحالة دلوقتي مأشفرة ع الآخر.. إحنا مش لاقيين حتى تمن العشا ودول ولاد الأ... رايحين يعتصموا!

يقولها مستنكرا ومتأثرا بشدة.. يقاطعنا شيخ يجلس بجوار الشباك: شوف شوف.. واقفين خايفين مستخبيين زي الفيران.. ازاي (ننظر فنفهم بغيته) هناك على الرصيف وقف عسكريان يحتسيان

الشاي تحت تندة أحد المحال التجارية..

يجيبه آخر:آه يا شيخ.. ده الواحد اكتشف كمية فساد يشيب لها الولدان.. ده كفاية إننا دلوقتي واقفين بحرية ونقدر نقول الله يخرب بيوتهم ربنا ياخدهم.. من غير ما تلاقي جنبك حد جرك من قفاك وما حدش يعرف طريقك.. هو احنا كنا نقدر نقول كده قبل كده؟ كفاية دي.. يتابعه آخر: كفاية اتنفسنا الحرية.. هوا نضيف بقى.. وأي واحد يقدر يقف ويقول يخرب بيت فلان ولا علان في وسط الشارع من غير ما حد يعمله حاجة.. يقاطعه الشيخ مرة أخرى: آه.. ده أمن الدولة كان في كل حتة.. ده الولية (يقصد المدام) كنت قبل ما أشد الغطا أقررها وأتأكد إنها مش معاهم.. ده احنا كنا بنفتح الحنفية ينزلولنا منها.. آه ربنا يباركلهم العيال بتوع التحرير.. بصراحة اللي عمله العيال دي حاجة بجد يعني ردتلنا الروح.. عيال جدعان بجد.

ولأنهم كبار في السن ومن طبقات مختلفة لم أستطع أن أمنع نفسي من التدخل في الحديث واتحمقت حمقة الشباب ورميت طرحا للجميع بشكل غير مباشر وخاصة بتوع نغزهم دول وتساءلت مستنكرة: ولما هو كده.. أمال ليه زعلانين من شباب الميدان وبتقولوا

كفاية كده يروحوا يمشوا وكفاية كده يقوموا؟؟ نظروا بعضهم لبعض واحدا تلو الآخر وقال أولهم: لأ أنا ما قولتش كده.. ورد الثاني: ولا أنا.. وقالت حاجة -سيدة مسنة كانت تتابع الحديث من أوله في صمت-: ولا أنا!

ابتسمت في سري ونفسي.. فقد انتشيت بإنكارهم وكذبهم الواضح جليا في أعينهم وطريقة ردهم المستنكرة المفتعلة السريعة.. أحسست حينها بالانتصار والفخر.. وبرغم ملامحهم الكاذبة فإنني ابتسمت وانتشيت.. فمجرد إنكارهم على هذا النحو -كأنما هي تهمة خطيرة وجناية جسيمة تلتصق بصاحبها- انتصار كبير في حد ذاته ومكسب وصيد ثمين ورد للألسنة والأفواه.. ابتسمت في نصر واستأذنتهم في النزول المحطة "الجاية".

* يغزّه: يطعنه بمطواة.

* بطّال: عاطل.

الفهرس



المُلك والملكوت



فاطمة عبد الله

بين صبى و كبير، غنى و فقير، جد وحفيد، أرامل ويتامى..

هنالك حكايات وصبايا.. تضحيات وضحايا.. شوارع وبيوت، كلها تسبح فى الملكوت..

مُلك كبير..

ترتيب.. تنظيم كلٌ هائم سارح، لا يلقى إلا أقداره..

حكاوى وشخوص، لا يجمعها إلا المُلك..

والملكوت.





مع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب -خاصة بعد ثورة يناير العظيمة- وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها - الناشر والقارئ - على حد سواء..

وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت - وبشدة - اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال هذا العام، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرا، إيمانا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصا منها على استمرارها في دورها، وإيمانا منها - كما عهدتموها- بالشباب الموهوب..

ليصبح بين أيديكم، هذا الكتاب.

الناشـــر

